الإسلام

على مفترق الطرق

تأليف
محمد أسد

ترجمة
الدكتور عمر فروخ

دار العلم للملايين

الكتاب والمؤلف

بين مئات الكتب التي اتفق لي أن قرأتها في اللغات الأجنبية، من تلك الكتب التي تبحث في الإسلام إعجاباً به وتحليلاً له أو تهجماً عليه، لم أجد أخلق من هذا الكتاب بالنقل إلى اللغة العربية.

إن مؤلف هذا الكتاب صارح المسلمين بحقائق قل ان جرؤ غيره على التصريح بها: إنه درس دقيق لحال المسلمين اليوم من الناحية الثقافية والروحية. وهو يدعو المسلمين إلى العودة إلى حقيقة دينهم، لأن الدين الذي استطاع أن يجمع العرب منذ أربعة عشر قرناً، ويجعل منهم قوة عظيمة في السياسة والعلم والاجتماع يستطيع أن يقدم لهم اليوم ما قدم بالأمس: دستوراً للحياة لا يجدون مثله في النظم التي تعرضت منذ فجر التاريخ حتى اليوم لتهذيب البشر.

أما المؤلف فنمسوي الأصل، كان اسمه ليوبولد فايس فاعتنق الإسلام وتسمى باسم « محمد اسد ». ثم انصرف إلى ترجمة معاني القرآن الكريم، وصحيح البخاري إلى اللغة الانكليزية.





على مفترق الطرق

تأليف
محمد أسد
(ليوبولد فايس)

نقله إلى العربية
الدكتور عمر فروخ

دار العلم للملايين
ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت
تلكس: ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين

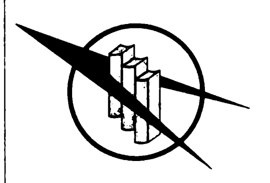
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧

اهــــداء الكتاب

الى الشباب المســــلم

المؤلف

ملاحظة

●

لقد لفت نظرنا نفر من المفكرين المشتغلين بقضايا العرب والاسلام الى نقطتين قيّمتين فيما يتعلق بإخراج هذا الكتاب :

١ ـ إبراز عدد من الجمل التي تعد زبدة آراء المؤلف بحرف ظاهر جلي يميزها مما عداها من الجمل .

٢ ـ شرح بعض التعابير والآراء حتى لا تستغلق على القارىء العادي .

اما فيما يتعلق بالملاحظة الاولى فقد طبعت الجمل المقصودة بحرف اكبر حجماً . واما فيما يتعلق بالملاحظة الثانية فكانت المهمة اصعب . لقد طلب مني ان أعلق على التعابير والآراء المقصودة بحواشي . ولكن الحواشي تكون عادة بحرف صغير جداً ، ثم هي فوق ذلك تزعج القارىء بنقل نظره مراراً بين أعلى الصفحة وأسفلها ، ثم هي أيضاً ـ وهذا أكثر أهمية ـ تقطع على القارىء سلسلة افكاره . من اجل ذلك اخترت ان اضم هذه التفاسير والتعاليق في المتن نفسه بعد ان حصرتها بين معقوفتين هكذا : [ ]

* *

ولا يسعني هنا الا ان اشكر نفراً من الاصدقاء الذين كلفوا انفسهم عناء المراجعة للكتاب ، ثم أشاروا الى الاماكن التي يحسن معالجتها على اساس الملاحظتين السابقتين .

ع . ف

مقـــدمة الطبعة العربية

للدكتور مصطفى الخالدي

●

بين مئات الكتب التي اتفق لي أن قرأتها في اللغات الاجنبية ، من تلك التي تبحث في الاسلام اعجاباً به أو تحليلا له أو تهجماً عليه ، لم أجد أخلق من هذا الكتاب بالنقل إلى اللغة العربية . من أجل ذلك رغبت الى صديقي الدكتور عمر فروخ أن يحقق عني هذه الأمنية ويقوم بأداء هذا الواجب فإن ذلك داخل في نطاق اختصاصه هو ، بعيد عن اختصاصي أنا .

ولم يكن الذي دفعني إلى وضع هذا الكتاب بين أيدي الشباب المسلم ان هذا الكتاب أوسع الكتب في موضوعه ، ولا أجمعها في الناحية التي تناولها ، ولكن لأن صاحبه قد صارح المسلمين بحقائق قلّ أن جرؤ غيره على التصريح بهـــا : إنه درس دقيق لحال المسلمين اليوم من الناحية الثقافية والروحية . ومع أن ثمة سحابة كثيفة من التشاؤم تحوم حول نفس المؤلف ، فإن هناك أيضاً بريقاً ساطعاً

من الامل باستعادة الاسلام غابر مجده ورجوع المسلمين إلى قوتهم الاجتماعية والثقافية الاولى . هذا البريق الساطع من الأمل يتلخص عند المؤلف في جملة قصيرة : « رجوع المسلمين إلى التمسك بحقيقة دينهم . » وهذا بلا ريب راجع إلى الأخذ بالقول المأثور : « لا يصلح آخر هـذا الأمر الا بما صلح بـه أوله » . وتقوم حجة المؤلف في ذلك على أن الدين الذي استطاع أن يجمع العرب منذ اربعة عشر قرناً ، ويجعل منهم قوة عظيمة في السياسة والعلم والاجتماع يستطيع أن يقدّم للمسلمين اليوم ما قدّم لهم بالأمس : دستوراً للحياة لا تجد مثله في النظم الاجتماعية والدينية والخلقية من تلك النظم التي تعرضت منذ فجر التاريخ حتى اليوم لتهذيب البشر . إن الاسلام ليس ديناً لأمة خاصة ولا ديناً لبلد بعينه ولا ديناً يناسب زمناً واحداً ، انه دين يتفق مع كل مكان وزمان ويصلح لكل قوم ولكل حال من أحوال المدنية . وان الدين الذي خلق عظمة العرب الماضية وعظمة غير العرب من الذين اعتنقوه في مراحل التاريخ لقادرٌ على أن يعيد إلى المسلمين عظمتهم التي فقدوها من جراء تهاونهم الطويل . ثم إن الاسلام أقدر الأديان كلها على خلق القومية الصحيحة في الأمم .

والمسلمون اليوم – وغير المسلمين أيضاً – في حاجة ، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، إلى الطمأنينة المنبعثة من القلب . ولا يتم ذلك إلا بالرجوع ، بعد تلك

الكوارث التي روعت العالم ستة اعوام كاملة ، الى شيء من الاعتبار الروحي في الحياة بعد ان طغت الشهوة المادية الجامحة على كل صغيرة وكبيرة في حياتنا اليومية . وليس معنى ذلك ان ننصرف عن الكفاح المادي في الحياة ولا ان نعتزل العالم لنعيش عيشة صوفية بعيدة عن تحمل تبعات الحيـاة وعن تجشم تـكاليفها . لا ، انني احب ان أرى الحياة من جميع وجوهها ، واحب فوق كل ذلك ألا يطغى وجه منها على غيره ، ولا ان يتضاءل احدها حتى يتلاشى في سائرها . وما الدين الا وجه من أوجه الحياة . على ان ثمة فارقاً بين الاسلام وبين غيره من الاديان في هــــذه الناحية . الاسلام لا يسعى للآخرة دون الدنيا ، ولا هو يهتم للدنيا وحدهـا دون الآخرة ، ولكنه دين ينظر الى الحياة الانسانية على انها وحدة كاملة بكل ما فيها : ان الاسلام يهتم بالحرب كما يهتم بالسلم ، ويستحسن الزهد المعتدل كما يحث على الأخذ من الدنيا بنصيب كبير .

ولا حاجة الى القول بأن الاسلام أحلّ العقل مكاناً علياً : لقد جاء الاسلام لخير البشر فلم يحرّم ما فيه خيرهم ، ثم هو لم يجبرهم على الاغتراف من هذا الخير ، ولكنه بيّن للناس ما فيه خيرهم وشرهم ، ثم وهبهم عقلاً يختارون به لأنفسهم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها . » من أجل ذلك امتاز الاسلام بخاصتين : اولاهما أن تأوّل بعض فروعه يختلف باختلاف الزمان والمكان حتى توافق

هذه الفروع كل زمان ومكان . وثانيهما انـه دين يخالط الحياة كلها ، فالسياسة والعلم والفلسفة والاحسان والحرب والتجارة والزواج والدولة والأسرة كلها تنطوي في الاسلام كما تنطوي الجبـــال والأنهار والاشجار في نور الشمس . فإهمال الاسلام اذن ليس معناه اهمالا للدين فحسب ، بل اهمال للحياة بأسرها .

هذا ما يجده القارىء في هذا الكتاب مفصلا منسقاً .

ويجدر ان نشير هنا الى أن المؤلف نمسوي الأصل اعتنق الاسلام وتسمى باسم « محمد أسد » ثم احب أن يكتب هذا الكتاب على ما تراه مبسوطاً في مقدمته هو .

ولا بد لي في الختام من شكر عدد وافر من الاخوان الذين شاركوني فى الرأي وأحبوا ان يروا هذا الكتاب في اللغة العربية ، وأخص بالذكر منهم الصديقين الكريمين الدكتور محمد امين تلحوق والسيد خليل واكد حمادة اللذين حاولا نقل هذا الكتاب ايضاً وبذلا فيه جهداً كبيراً قبل ان يتولى الدكتور عمر فروخ نقله كاملا . ان الغاية من هذا العمل فائدة المجموع وتحقيق مثل اعلى والقيام بإصلاح روحي قبل كل شيء آخر . ولا ريب بأن هذا الكتاب مطلع حركة مباركة ستتسع مع الأيام ، وسيكون لها ثمر يانع إن شاء الله .

الدكتور مصطفى الخالدي



الأستاذ محمد أسد
مؤلف الكتاب



مقدمة المؤلف

•

من النادر أن تجد عهداً مضطرباً من الناحية الفكرية كعهدنا هذا [الذي نعيش فيه اليوم] . اننا لا نجابه مشاكل شتى تحتاج الى حلول لم يسبق ان احتاج اليها من جاء قبلنا فقط ، بل إن هذه المشاكل تبرز لنا من نواح مختلفة تماماً عن كل شيء تعودناه إلى اليوم . ان المجتمع الانساني يخضع في كل مكان لتبدل أساسي . إن هذا التبدل يختلف بين بلد وبلد ، ولكننا نلمح في كل مكان أن ثمة قوة تسوق الناس سوقاً لا تدع لهم معه مجالاً للتوقف ولا للتردد .

وليس العالم الإسلامي بمعزل عن ذلك ، فإننا نرى هنا ايضاً أن ثمة عادات قديمة وآراء تختفي تدريجاً ، ولكن لتظهر ثانية في أشكال جديدة . فإلى أين سينتهي هذا التطور ؟ وعند أي حد سيقف ؟ وإلى أي مدى تراه يتفق مع رسالة الإسلام الثقافية ؟

ان هذا الكتاب لا يدعي المقدرة على بسط رد مستوف [وجواب شاف] على هذه الاسئلة كلها ، إذ أن مجاله الضيق لن يتسع إلا للبحث في مشكلة واحدة من تلك المشاكل التي تواجه المسلمين اليوم : تلك هي الموقف الذي يجب أن يتخذه

المسلمون تجاه المدنية الاوروبية . على أن تشعب الموضوع اقتضى أن يتناول البحث بعض النواحي الأساسية في الإسلام وعلى الأخص فيما يتعلق بالسنة [1] . ولقد كان من المستحيل أن أقدم هنا أكثر من موجز بسيط لقضية تضيق عنها المجلدات الضخمة . ولكن على كل حال – أو ربما : من أجل ذلك – أشعر بالثقة من أن هذا المجمل المختصر سينكشف عن حمله الآخرين على زيادة التفكير في هذه المسألة المهمة [2] .

*

والآن يجب أن أقول كلمة عن نفسي ، إذ يحق للمسلمين حينما يخاطبهم رجل مهتد أن يعلموا كيف اعتنق ذلك الرجل الاسلام ولماذا اعتنقه :

في عام ١٩٢٢ تركت النمسة بلادي لأتجول في افريقية وآسية بصفتي مراسلا لبعض أمهات الصحف الاوروبية . ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتي تقريباً في الشرق الاسلامي . ولقد كان اهتمامي بالشعوب التي احتككت بها في أول امري اهتمام رجل غريب . لقد رأيت نظاماً اجتماعياً ونظرة إلى الحياة تختلف اختلافاً اساسياً مما هي الحال في اوروبة . ومنذ البداءة الأولى نشأ في نفسي ميل إلى ادراك للحياة أكثر هدوءاً – أو إذا شئت – أكثر انسانية ،

---

(١) السنة هي مجموع الاعمال والأقوال التي رويت عن محمد رسول الله .

(٢) ان اتساع الموضوع – موضوع مسايرة الاسلام لحوادث العالم الجارية – هو الذي جعل المؤلف يوجز في الكلام ، فيلم هو بالنظرة العامة ويترك مهمة التوسع للباحثين في تفاصيل هذا الموضوع العظيم .

اذا قيست تلك الحياة بطريقة الحياة الآلية العجلى في اوروبة .
ثم قادني هذا الميل الى النظر في اسباب هذا الاختلاف .

وهكذا اصبحت شديد الاهتمام بتعاليم الاسلام الدينية . الا ان هذا الميل لم يكن في الزمن الذي نتكلم عنه ، كافياً لجذبي الى حظيرة الاسلام ، ولكنه كانَ كافياً لأن يعرض أمامي رأياً جديداً في امكان تنظيم الحياة الانسانية مع اقل قدر ممكن من النزاع الداخلي واكبر قدر ممكن من الشعور الاخوي الحقيقي . ان الحياة الاسلامية في الواقع تظهر ، على كل حال ، في ايامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية في الاسلام . من ذلك مثلا ان كل ما كان في الاسلام تقدماً وحيوية اصبح بين المسلمين اليوم تراخياً وركوداً ، وكل ما كان في الاسلام من قبل كرماً وايثاراً اصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر [واثانية] وحباً للحياة الهينة.

لقد شجعني هذا الاكتشاف ، ولكن الذي حيرني كان ذلك التباعد البين بين الماضي والحاضر . من اجل ذلك حاولت الاقتراب من هذه المشكلة البادية امامي من ناحية اشد صلة ، لقد تخيلت نفسي واحداً من الذين يضمهم الاسلام . على ان ذلك كان تجربة عقلية بحتاً ، ولكنه كشف لي في وقت قصير عن الحل الصحيح. لقد تحققت ان ثمة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، ذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على ان المسلمين اخذوا شيئاً فشيئاً، يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية. فنتج من ذلك ان الاسلام ظل بعد ذلك موجوداً ، ولكنه كان

جسداً بلا روح. ثم ان العنصر الذي خلق قوة العالم الاسلامي من قبل هو المسؤول الآن عن ضعف المسلمين : فإن المجتمع الاسلامي بُني منذ أوله على اسس دينية ، وضعْف هذا الاساس قادبالضرورة الى ضعف البناء الثقافي فيه ، وربما كان سبباً لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهماً لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية ، وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين الى هجر تطبيقها تطبيقاً تاماً على الحياة الحقيقية. لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب الى هضبة البامير (في الهند) ، ومن البوسفور الى بحر العرب ، فأصبح ذلك تقريباً شجى في نفسي طما في النهاية على سائر اوجه اهتمامي بالعالم الاسلامي من الناحية الثقافية. ثم زادت رغبتي في ذلك شدة حتى اني – وانا غير المسلم – اصبحت اتكلم الى المسلمين انفسهم مشفقاً على الاسلام من اهمال المسلمين وتراخيهم . لم يكن هذا التطور بيناً في نفسي ، الى ان كان يوم – وذلك في خريف عام ١٩٢٥ – وانا يومذاك في جبال الافغان ، فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله : « ولكنك مسلم ، غير انك لا تعرف ذلك من نفسك » لقد أثرت فيّ هذه الكلمات ، غير اني بقيت صامتاً. ولكن لما عدت الى اوروبة مرة ثانية في عام ١٩٢٦ وجدت ان النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا ان اعتنق الاسلام .

* *

هذا القدر من الاحوال التي لابست اعتناقي الاسلام يكفي في هذا المقام. ومنذ ذلك الحين وهذا السؤال يُلقى عليّ مرة بعد مرة :

لماذا اعتنقت الإسلام ، وما الذي جذبك منه خاصة ؟ وهنا يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً . لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصاً من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب والمتراص بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الاخلاقية بالإضافة إلى منهاج الحياة العملية . **ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها ، فان الاسلام على ما يبدو لي ، بناء تام الصنعة ، وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضاً ويشد بعضها بعضاً . فليس هناك شيء لا حاجة اليه ، وليس هنالك نقص في شيء ، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص. ولعل هذا الشعور من ان جميع ما في الاسلام من تعاليم وفرائض « قد وضعت مواضعها » هو الذي كان له أقوى الاثر في نفسي** ، وربما كانت مع هذا كله أيضاً مؤثرات اخرى يصعب عليّ الآن ان احللها . وبالإيجاز فقد كان ذلك قضية من قضايا الحب ، والحب يتألف من اشياء كثيرة : من رغباتنا وتوحدنا ، ومن اهدافنا السامية وعثراتنا ، ومن قوتنا وضعفنا ؛ وكذلك كان شأني . لقد هبط عليّ الاسلام كاللص الذي يهبط المنزل في جوف الليل ، ولكنه لا يشبه اللص لانه هبط عليّ ليبقى الى الأبد .

ومنذ ذلك الحين سعيت الى ان اتعلم من الاسلام كل ما اقدر عليه : لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول عليه السلام ، لقد درست لغة الاسلام وتاريخ الاسلام وكثيراً مما كتب عنه او كتب في الرد عليه. وقد قضيت اكثر من خمس سنوات في الحجاز

ونجد – واكثر ذلك في المدينة – ليطمئن قلبي بشيء من البيئة الاصلية للدين الذي قام النبي العربي بالدعوة اليه فيها . وبما ان الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الاقطار فقد تمكنت من المقارنة بين اكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التي تسود العالم الاسلامي في ايامنا . **هذه الدراسات والمقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال ، بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين ، أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر . وهكذا تجمعت رغباتي كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد .**

**

وهذا الكتاب خطوة متواضعة نحو ذلك الهدف العظيم . وليست تبلغ به الدعوى الى ان يكون اجمالاً خالصاً للقضايا كلها لا اثر للعاطفة فيه . بلى ، انه بسطُ حالٍ كما تتراءى لي – وعرضٌ موجز لحال الاسلام في مجابهة المدنية الغربية . وهذا الكتاب لم يكتب لأولئك الذين ليس الاسلام لهم سوى عون من الأعوان – قلّت فائدته او كثرت – على ولوج الحياة الاجتماعية [أي الذين يتاجرون بالاسلام] ، **ولكنه كتب على الأصح لأولئك الذين لا يزال يحيا في قلوبهم شرارة من ذلك اللهيب الذي كان يضطرم في قلوب صحابة رسول الله ، ذلك اللهيب الذي جعل الاسلام في ما مضى عظيماً بنظامه الاجتماعي ورقيه الثقافي .**

سبيل الاسلام

●

ان افضل ما نصف به عصرنا الحاضر انه عصر أمكن فيه « التغلب على المسافات » ، فإن وسائل النقل تطورت الى ابعد ما حلمت به الاجيال الغابرة ، وأثارت حركة نقل تجارية اوسع مدى واسرع مما عُرف في تاريخ الجنس البشري. ولقد كان من نتيجة هذا التطور ان اصبحت الشعوب يعتمد بعضها على بعض في الحياة الاقتصادية ، فليس من شعب ولا جماعة تستطيع اليوم ان تعيش بمعزل عن سائر العالم . ان الحركات الاقتصادية لم تبق محلية، بل اكتسبت صفة عالمية واصبحت تتجاهل في اتجاهاتها الحدود السياسية والمساحات الجغرافية، ثم اخذت تحمل معها — ولعل هذا أشد أهمية من الناحية المادية البحت لهذه المشكلة — الحاجة المتزايدة ، ليس الى نقل البضائع فحسب ، بل الى نقل الآراء والاتجاهات الفكرية الثقافية ايضاً، ولكن بينما تسير هاتان القوتان الاقتصادية والثقافية جنباً الى جنب، تراهما مختلفتين في أسسهما الفعالة. ان المبادىء في علم الاقتصاد تتطلب ان تكون المقايضة بين الشعوب متبادلة ، وهذا يعني انه لا يمكن لشعبما ان يتخذ دائماً صفة المشتّري بينما يكون الآخر ابداً بائعاً . وفي اثناء هذا المدى الطويل يجب على كل منهما ان يقوم بالدورين

معاً على التوالي : يجب ان يأخذ وان يعطي اما مباشرة او من طريق اولئك الذين يمثلون في رواية القوى الاقتصادية .

« ولقد ركب في طبيعة البشر انالامم والمدنيات التي هي »
«أخصب من الناحية السياسية والاقتصادية ، تترك على الأمم، »
«التي هي اضعف منهافي الحيوية ، روعة وتؤثر فيها من الناحية»
«الثقافية والاجتماعية من غير ان تتأثر هي نفسها. تلكهيالحال»
« اليوم فيما يتعلق بالصلات بين الغرب وبين العالم الاسلامي» .

أما من وجهة نظر المؤرخ الناقد، فإن الأثر القوي ذا الاتجاه الواحد الذي يمليه التمدين الغربي على العالم الاسلامي ، لا يدعو الى الدهشة مطلقاً لانه نتيجة تطور تاريخي له اشباه كثيرة في أماكن أخر. ولكنبينما نجد المؤرخ يرضى بهذه النتيجة،نجد نحن الآخرين ان المشكلة لا تزالحيث كانت. ونحن الذين لسنا نظارة متحمسين فحسب ، بل ممثلون حقيقيون في هذه المسرحية، نحن الذين ننظر الى انفسنا على اننا اتباع النبي محمد (ص) نجد ان المشكلة تبدأ في الحقيقة من هنا . **اننا نعتقد ان الاسلام، بخلاف سائر الأديان، ليس اتجاه العقلاتجاهاً روحياً يمكن تقريبه من الاوضاعالثقافية المختلفة، بلهو فلكثقافيمستقل ونظاماجتماعي واضحالحدود. فاذا امتدتمدنيةاجنبيةبشعاعها الينا واحدثت تغييراً في جهازنا الثقافي – كما هي الحال اليوم – وجب علينا ان نتبين لانفسنا اذا كان هذا الاثر الأجنبي يجري في اتجاه امكانياتنا الثقافية او يعارضها ، وما اذا كان يفعل في جسم الثقافة الاسلامية فعل المصل المجدد للقوى او فعل السم .**

أما الجواب عن هذا السؤال فلا يأتي إلا عن طريق التحليل فقط. فعلينا ان نكشف القوى المحركة في المدنيتين – في المدنية الاسلامية وفي مدنية الغرب الحديث – ثم نقوم بالبحث لنعرف الحد الذي يجب أن يذهب اليه التعاون بينهما. وبما ان الثقافة الإسلامية ثقافة دينية في أساسها فيجب ان نتبين الدور الذي يقوم به الدين في الحياة الانسانية.

*

إن ما نسميه « الاتجاه الديني » في الانسان إنما هو النتاج الطبيعي لأحواله العقلية والحيوية. ان الانسان لا يستطيع أن يكشف لنفسه غوامض الحياة، ولا سر الولادة والموت، ولا سر اللانهاية والأبد، فإن تفكيره يصطدم بجدران لا تخترق. ولكن الانسان على كل حال يستطيع أن يعمل شيئين: أولهما أنه يتحاشى كل محاولة لفهم الحياة بمجموعها. وفي هذه الحال يعتمد الانسان على قرائن الاختبار الظاهرة وحدها، ويحصر كل استنتاج في نطاقها، وهكذا يصبح قادراً على فهم نتف متفرقة من الحياة تزداد في عددها وفي وضوحها بسرعة أو ببطء يتفقان مع ازدياد معرفة الانسان بعالم الطبيعة. ولكن هذا الفهم على كل حال يبقى نتفاً من مجموع تظل الإحاطة به وراء طاقة العقل البشري.. هذا هو السبيل الذي تسير فيه العلوم الطبيعية. أما الامكان الثاني – الذي يمكن أن يوجد بجانب الامكان العلمي – فهو سبيل الدين. انه يهدي الانسان في أكثر الأحيان من طريق الاختبار الوجداني أو بالحدس لقبول تفسير الحياة تفسيراً شاملاً مبنياً في أكثر على

الافتراض بأن ثمة قوة مبدعة سامية تدبر هذا العالم على أمر قد قـُدِر ولكن الإحاطة به وراء طاقة الفهم البشري . وكما سبق لنا القول فقلنا انه لا يلزم من هذا الرأي ان يمتنع الانسان من البحث في حقائق الحياة وأجزائها حينما تكشف هذه نفسها للنظر الظاهر ، إذ ليس ثمة عداوة أصيلة بين الرأي الظاهر (العلمي) وبين الرأي الوجداني (الديني) ، ولكن الثاني في الحقيقة هو الاحتمال الوحيد في النظر العقلي لإدراك الحياة كلها على أنها وحدة في جوهرها وفي قوتها المحركة ، وعلى أنها مجموع متزن منسجم .وان التعبير « منسجم » – وهو الذي يساء استعماله كل الاساءة – أمر مهم جداً في ما نحاوله ،لأنه يقتضي اتجاهاً مصاقباً في الانسان . ان الرجل الديّن يعلم ان كل ما يصيبه أو يحدث في نفسه لا يمكن أن يكون خبط عشواء لا وعي فيه ولا حكمة منه . هو يعتقد أنه نتيجة لإرادة الله الواعية وحدها ، وأنه هو نفسه جزء حي من هذا المنهاج العالمي.وهكذا قدّر للانسان ان يحل هذا الخلاف المرير بين «الذات» الانسانية وبين العالم الواقعي المتكون من الحقائق والمظاهر التي تسمى الطبيعة . ان الانسان بكل ما في نفسه من التركيب الآلي المعقد،وبكل رغباته ومخاوفه وشعوره وشكوكه التفكيرية،يرى نفسه أمام عالم طبيعي امتزجت رحمته وقسوته ،وخطره وأمنه على أسلوب عجيب بعيد من أن نفسره ، وكأنه في ظاهره يعمل على أسس تناقض بناء التفكير البشري وتناقض أساليبه . ولم يتح قط للفلسفة العقلية المحض ولا للعلوم التجريبية أن تحل هذا التناقض . هنا يتدخل الدين .

وعلى ضوء النظر الديني والاختبار نجد ان « الذات » الانسانية العارفة والطبيعة الخرساء ، المسلوبة في ظاهرها من التبعة ، تجتمعان معاً في نسب من الانسجام الروحي، فإن الوعي الفردي في الانسان والطبيعة التي تحيط به وتملأه أيضاً ليسا ، وان اختلفا، سوى مظهرين متكاملين للإرادة المبدعة الواحدة بعينها. ان الخير العميم الذي يهبه الدين للانسان من هذا السبيل انما هو توكيد على ان الانسان ما زال ، ولن يزال ، جزءاً مقدراً في الحركة الابدية للخليقة. انه جزء محدود في نظام غير محدود في هذا الجهاز العالمي. ثم ان الاهمية النفسانية لهـــذا الادراك انما هي الشعور العميق بالسكينة ، انما هي ذلك التوازن بين الرجاء والخوف ، التوازن الذي يميز الديّن الحقيقي من الجاحد .

هذا الوضع الاساسي عام في الأديان الكبرى كلها مهما اختلفت اسماؤها (في الاصل : Denomination) وكذلك يعم فيها الحث على أن يسلم الانسان نفسه إلى ارادة الله المتجلية . على ان الاسلام، والاسلام وحده، يتخطى هذا التعليل النظري والنصح. وهو لا يرشد الانسان فقط الى ان الحياة في اساسها وحدة فحسب، لأنها تنبثق من الوحدانية الالهية ، ولكنه يدلنا ايضاً الى الطريقة العملية التي يستطيع بها كل فرد – في نطاق حياته الدنيوية – ان يعيد وحدة الفكر والعمل في وجوده ووعيه كليهما. وللوصول الى هذا الهدف السامي في الحياة كان الانسان في الاسلام غير مجبر على ان يرفض الدنيا ، وليس ثمة حاجة الى تقشف يفتح به الانسان باباً سرياً الى التطهير الروحي . ذلك امر غريب كل الغرابة عن

الاسلام، فالاسلام ليس عقيدة صوفيةولا هو فلسفة،ولكنه نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه ، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الانسانية . وانك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الاسلام تتفقان في انهما لا تدعان تناقضاً اساسياً بين حياة الانسان الجسدية وحياته الادبية فحسب ، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً امر يؤكده الاسلام ، إذ يراه الاساس الطبيعي للحياة .

ذلك هو السبب ،على ما اظن ، لهذا الشكل في الصلاة الاسلامية حيث يمتزج الخشوع ببعض الحركات الجسمانية . ان بعض النقاد الذين شهروا عداوتهم على الاسلام يجعلون هذا النوع من الصلاة برهاناً على زعمهم بأن الاسلام دين رسوم ومظاهر . وفي الحق ان أهل الأديان الاخرى ، اولئك الذين تعودوا أن يفصلوا تماماً بين الامور الروحية والامور الجسدية كما يفعل اللبّان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته ، لا يفهمون بسهولة ان في الحليب الصريح في الاسلام يجتمع هذان العنصران ـ مع انهما متميزان في اجزائهما ـ ويعيشان معاً متجانسين ، ويعبران عن نفسهما اوضح التعبير .

وهنالك مثل آخر ، لهذا الاتجاه ، في فريضة الطواف ـ اي السعي حول الكعبة في مكة . بما ان الطواف فرض عين على كل حاج الى هذا البلد المقدس ، وذلك بأن يسعى سبع مرات حول الكعبة ، وبما ان هذا الفرض من اهم الاركان الاساسية الثلاثة في الحج الاسلامي ، فإن لنا الحق في أن نتساءل فنقول : ما معنى هذا؟ وهل من الضروري ان نعبّر عن تقوانا بهذه الصورة الشكلية؟

ان الجواب واضح تماماً ، إذا نحن درنا حول شيء ما ، فإننا نقرر ان هذا الشيء هو النقطة المركزية لعملنا . ان الكعبة التي يولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز الى وحدانية الله، وان الطواف حولها يرمز الى جهود الحياة الانسانية. وهكذا نرى ان الطواف لا يعني ان افكارنا الخاشعة وحدها فقط ، بل حياتنا العملية واعمالنا وجهودنا أيضاً، كل هذه يجب ان تتمثل في نفسها فكرة الله ووحدانيته على انها مركز لها، كما قال القرآن الكريم: « وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات ٥٦) .

يختلف « ادراك » العبادة في الاسلام مما هو في كل دين آخر: ان العبادة في الاسلام ليست محصورة في اعمال من الخشوع الخالص كالصلوات والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الانسان العملية أيضاً. واذا كانت الغاية من حياتنا على العموم عبادة الله فيلزمنا حينئذ ضرورة ان ننظر الى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلها، على انها تبعة ادبية متعددة النواحي. وهكذا يجب ان تأتي اعمالنا كلها ، حتى تلك التي تظهر تافهة ، على انها عبادات : أي نأتيها بوعي ، وعلى انها تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج العالمي الذي ابدعه الله . تلك حال ينظر اليها الرجل العادي على انها مثل اعلى بعيد ، ولكن أليس من مقاصد الدين ان تتحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

ان موقف الاسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل. انه يعلمنا أولاً ان عبادة الله الدائمة ، والمتمثلة في اعمال الحياة الانسانية المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها، ويعلمنا ثانياً ان بلوغ

هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية وحياتنا المادية . يجب ان تقترن هاتان الحياتان، في وعينا وفي اعمالنا ، لتكون « كُلاً » واحداً متسقاً . ان فكرتنا عن وحدانية الله يجب ان تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا .

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه، هي فرق آخر بين الاسلام وبين سائر النظم الدينية المعروفة . ذلك ان الاسلام – على انه تعليم[1] – لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين الارض وخالقه فقط، ولكنه يعرض ايضاً – بمثل هذا التأكيد على الاقل – للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية. ان الحياة الدنيا لا يُنظر اليها على انها صدفة عادية فارغة ولا على انها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها من غير ان تكون منطوية على معنى ما، ولكن على انها وحدة ايجابية تامة في نفسها. والله تعالى «وحدة»، لا في جوهره فحسب، بل في الغاية اليه ايضاً . من اجل ذلك كان خلقه وحدة ، ربما في جوهره ، إلا انه وحدة في الغاية منه بكل تأكيد .

وعبادة الله في اوسع معانيها – كما شرحنا آنفاً – تؤلف من الاسلام معنى الحياة الإنسانية . هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الانسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الاسلام وحده يعلن ان الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا. ان الاسلام لا يؤجل هذا الكمال الى مابعد

(١) مبدأ يتقيد به الناس في حياتهم الروحية .

اماتة الشهوات «الجسدية» ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الارواح على مراتب متدرجة ، كما هي الحال في الهندوكية ، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان الا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم . كلا – ان الاسلام يؤكد في اعلانه ان الانسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية ، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو .

وتجنباً لسوء التفاهم نرى ان نعرّف « الكمال » على ما سيرد هنا . اننا ما دمنا نعالج كائنات انسانية حية محدودة فإننا لا نستطيع النظر في فكرة الكمال « المطلق » ، اذ ان كل ما هو مطلق فإنما يرجع الى عالم الصفات الالهية فقط . ان الكمال الإنساني في معانيه النفسانية والخلقية الصحيحة يجب ان يكون بالضرورة ذا صلات نسبية وصلات فردية خالصة . انه لا يقضي بالتحلي بجميع الصفات الحميدة المتخيلة ، اي المثلى ، ولا بالاكتساب التدريجي لصفات جديدة من عالم الانسان الخارجي ايضاً ، وانما يقضي بتحسين تلك الصفات الايجابية التي سبق لها أن وجدت في الفرد ، وذلك كله بطريقة توقظ فيه قوى هو مفطور عليها ، ولكنها هي كامنة فيه . وبالنظر الى اختلاف مظاهر الحياة فإن الصفات التي فطر عليها الانسان تختلف بين جيل وجيل . ومن المحال من أجل ذلك أن نظن ان جميع الناس يلزمهم – او انهم يستطيعون فيما لو حاولوا – ان يكدحوا الى « نوع » واحد من

الكمال – كما انه من المحال أن ينتظر من « النجيب »[1] الكامل ومن « البعير » الكامل أن يتصفا بصفات واحدة. وان كلاً منهما يمكن أن يكون تاماً مرضياً في جنسه، ولكنهما يظلان مختلفين لأن صفاتهما الاصلية مختلفة. وهكذا هي الحال في معالجة البشر. ولو جعل للكمال مقياس من « نوع » معلوم لاقتضى أن يتخلى الناس عن فروقهم الشخصية أو أن يتبدلوا بها غيرها أو أن يميتوها. ولكن هذا قد يفضي الى خرق القانون الآلهي الذي يقوم على التفاوت بين الافراد والذي يسيطر على الحياة في هذا العالم. من أجل ذلك نرى الاسلام – وهو ليس بدين لقهر النفس – يترك للانسان مجالاً واسعاً في حياته الشخصية والاجتماعية كيما تستطيع تلك الصفات المختلفة من العواطف والميول النفسانية ان تجد سبيلها في التطور الايجابي المتفق مع استعدادها الذاتي. وهكذا فقد يكون المرء زاهداً، أو انه يتمتع إلى أقصى حد بلذاته الحسية، وهو بعد في دائرة الشرع، وقد يكون مع هذا كله أعرابياً يطوف الصحراء غير مدخر طعاماً لغده، أو يكون تاجراً غنياً تحيط به بضاعته. وما دام الانسان خاضعاً لما يفرضه عليه الله بإخلاص وتقى فإنه بعد ذلك حر في أن يكيف حياته الشخصية على الشكل الذي توجهه اليه طبيعته. ان واجبه ان يستخرج من

---

(١) النجيب جمل الركوب وهو سريع، والبعير جمل لحمل الاثقال وهو بطيء ولقد ضرب المؤلف المثل بالفرس لأن في اوروبة خيلاً للسباق والركوب وخيلا لجر الأثقال. أما العرب فليس لديهم « خيل » لجر الأثقال ولكن عندهم بعران للحمل.

نفسه أحسن ما فيها كيا يشرّف هبة الحياة التي أنعم الله عليه بها، وكيا يساعد أخوانه من بني آدم بما ملكت يداه من وسائل رقيه هو، في جهودهم الروحية والاجتماعية والمادية. على أن شكل هذه الحياة الشخصية ليس بحال مقيداً بقياس ما. إن المرء حر في تخير ما يشاء من وجوه الإمكان المشروعة والتي لا حد لها تقف عنده.

ان أساس «حرية» الاختيار في الاسلام يقوم على الافتراض بأن الأصل في طبيعة الانسان الخير. وعلى خلاف ما تقول به النصرانية من أن الانسان خلق خاطئاً، وخلاف ما جاءت به التعاليم الهندوكية من أن الانسان كان في أول أمره دنساً فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط في سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال، نرى تعاليم الاسلام تقرر ان الانسان خلق طاهراً، وخلق تاماً كما قال القرآن الكريم[1]: «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم». ولكن هذه الآية تستمر لتستتم: «ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

هذه الآية الكريمة لا تأتي فقط بالعقيدة القائلة بأن الانسان في الأصل خيّر طاهر، بل هي تتضمن أيضاً أن الجحود وترك الاعمال الصالحات يهدمان هذا الكمال الأصلي. ثم أن الانسان يستطيع أن يحتفظ بكماله الشخصي أو يستعيده، فيما لو فقده، إذا أدرك بوعيه الكامل وحدانية الله تعالى ثم تقيد بشرائع الله. وعلى هذا فليس الشر – كما يرى الاسلام أساسياً أبداً ولا أصيلاً أيضاً، ولكنه مما يكتسبه الانسان في أثناء حياته، فهو اذن من إساءة التصرف

---

(١) سورة ٩٥ (التين): ٤، ٥.

بتلك الصفات الإيجابية الغريزية التي وهبها الله كل انسان . هذه الصفات – كما سبق لنا القول في ذلك – تختلف بين الأفراد ، ولكنهاهي دائماً كاملة في نفسها ، وان تطورها الكامل لممكن في أثناء حياة الانسان الفردية علىهذه الارض . اننا نسلم بأنالحياة الآخرة – لما فيها من تغير الأحوال تماماً فيما يتعلق بالإدراك والشعور – ستهبنا صفات وقوى جديدة تجعل استمرار تطور النفس الانسانيةممكناً ، ولكن هذا يتعلق بحياتنا الآخرة فقط. على اننا نستطيع كلنا فيهذه الحياة الدنيا أيضاً ، كما تنص التعاليم الاسلامية ، ان نبلغ مبلغاً تاماً من الكمال ، وذلك إذا عملنا على رقي صفاتنا الايجابية الراهنة التي تتألف منها حياتنا الفردية .

ومن بين سائر الأديان نجد الاسلام وحده يتيح للانسان أن يتمتعبحياته الدنيا إلىأقصى حد منغير ان يضيعاتجاهه الروحي دقيقة واحدة . وهذا يختلف كثيراً من وجهة النظر النصرانية. ان الإنسان – حسب العقيدة النصرانية – يتعثر في الخطيئة الموروثة التي ارتكبها آدم وحواء [٢] وعلى هذا تُعتبر الحياة كلها –فينظر العقيدة على الأقل– وادياً مظلماً للأحزان. انها الميدان الذي تعترك فيه قوتان : الشر المتمثل في الشيطان والخير المتمثل فيالمسيح . ان الشيطان يحاول بواسطةالتجاربالجسدية أن يسد طريق النفس الانسانية نحو النور الأزلي : ان النفس ملك المسيح ولكنالجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية . وقد يمكن التعبير عن ذلك بوجه آخر: ان عالم المادة شيطاني في أساسه، بينماعالم الروح إلهي خيّر . وان كل ما في الطبيعة الانسانية من المادة – أي

«الجسد» كما يؤثر اللاهوت النصراني أن يدعوه – فإنما هو نتيجة مباشرة لزلة آدم حينما سمع نصيحة الامير الجهنمي للظلمة والمادة، يعني ابليس. من أجل ذلك كان حتماً على الانسان عندهم اذا شاء النجاة أن يلفت قلبه عن عالم اللحم إلى هذا العالم الروحي المقبل، حيث "تحل الخطيئة البشرية بتضحية المسيح" أي بفداء المسيح.

أما في الاسلام فإننا لم نعلم شيئاً عن خطيئة أصلية موروثة، من أجل ذلك ليس ثمة أيضاً غفران شامل للانسانية فيه. إن المغفرة والغضب[1] امران شخصيان. ان كل مسلم رهين بما كسب فهو يحمل في نفسه جميع وجوه الامكان للنجاة الروحية أو للخيبة الروحية. ولقد قال القرآن الكريم في النفس الانسانية: «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» (البقرة ٢٨٦)، وقال في موضع آخر: «وأن ليس للانسان إلا ما سعى[2]».

ولكن كما ان الاسلام لا يشرك النصرانية في ما تنص عليه من الناحية المظلمة في الحياة فإنه يعلمنا على كل حال ألا نعلق على الحياة أهمية مغالى فيها كالتي تقول بها المدنية الغربية الحاضرة. إن الغرب الحديث – بصرف النظر عن نصرانيته – يعبد الحياة بالطريقة نفسها التي يعبد بها النهِم طعامه: انه يلتهمه ولكنه لا يحترمه. أما الاسلام فانه ينظر إلى الحياة الدنيا بهدوء واحترام. انه لا يعبد الحياة ولكنه ينظر اليها على انها دار ممر في طريقنا إلى وجود

---

(١) المغفرة (او النجاة): الفوز يوم القيامة بدخول الجنة، والغضب: قضاء الله على الانسان في الآخرة بالهلاك: بالذهاب الى جهنم.

(٢) سورة ٥٣ (النجم): ٣٩.

أسمى . ولكن بما « أنها دار ممر » ، ودار ممر ضرورية ، فليس من حق الانسان أن يحتقر حياته الدنيا ولا أن يبخسها شيئاً من حقها . ان سفرنا في هذا العالم أمر ضروري وجزء إيجابي من سنة الله . من أجل ذلك كان لحياة الانسان قيمة عظمى ، ولكن يجب ألا ننسى انها قيمة الواسطة إلى غاية فقط . ثم ليس هناك مجال في الاسلام للتفاؤل المادي كما هو في الغرب الحديث الذي يقول « مملكتي في هذا العالم وحده » ، ولا لاحتقار الحياة الذي يجري على لسان النصرانية : « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . ان الاسلام يتخير في ذلك طريقاً وسطاً : ولذلك يعلمنا القرآن الكريم أن ندعو فنقول : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[1] » . وهكذا نرى ان قدر هذا العالم ، وما فيه من متاع ، حق قدره لا يقف حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحيـــة . ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في نفسه ، إذ ان الغاية من جميع نشاطنا العملي يجب أن تكون خُلقاً ثم احتفاظاً بأحوال فردية واجتماعية كتلك التي يمكن أن تعمل على ترقية الفضائل الخلُقية في البشر . وعلى هذا المبدأ ترى الاسلام يقود الانسان نحو الشعور بالتبعة الأدبية في كل ما يعمل سواء اكان ذلك جليلاً أم ضئيلاً . . ان الاسلام لا يسمح بالتفريق بين المطالب الأدبية والمطالب العملية في وجودنا هذا . ففي الاشياء كلها لنا خيار واحد هو الخيار بين الحق والباطل ، وليس ثمة منزلة بين المنزلتين . وهكذا كان الإصرار في الاسلام ، على ان العمل عنصر لا غنى عنه في الفضائل

(١) سورة ٢ (البقرة) : ٢٠١ .

الخلقية شديداً . فعلى كل مسلم أن ينظر الى نفسه على انه مسؤول شخصياً عن نشر كل انواع السعادة حوله ، وان يسعى الى إقرار الحق وإزهاق الباطل في كل زمان وفي كل ناحية . ونحن نجـــد مصداق ذلك في آية من القرآن الكريم : «كنتم خير أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» (آل عمران ١١٠).

هذا هو التبرير الادبي للنشاط الظالم[١] في الاسلام ، تبرير الفتوح الاسلامية الاولى او ما يسمونه بالتوسع الاستعماري . ان الاسلام « استعماري » اذا لم يكن بد من استعمال هذا التعبير . ولكن هذا النوع من الاستعمار لم يحث عليه حب السيطرة ، وليس فيه شيء من الانانية الاقتصادية او القومية، ولا شيء آخر من الطمع في ان تزيد اسباب رفاهيتنا الخاصة على حساب شعب آخر ، ولم يقصد منه في يوم من الايام اكراه غير المؤمنين على الدخول في الاسلام . لقد قصد به دائماً ما يقصد به اليوم من بناء اطار عالمي لأحسن ما يمكن من التطور الروحي للانسان . ان المعرفة بالفضائل ــ حسب تعاليم الاسلام ــ تفرض على الانسان من تلقاء نفسها تبعة العمل بالفضائل ، واما الفصل الافلاطوني[٢] بين الخير والشر من غير حث على زيادة الخير ومحو الشر فإنه فسق عظيم في نفسه . ان الاخلاق في الاسلام تحيا وتموت مع المسعاة الانسانية للعمل على نصرتها في الارض .

---

(١) الظلم على ما ورد في الشعر الجاهلي معناه « البدء بالعدوان على من يضمر لك العدوان » قال زهير بن ابي سلمى : ومن لا يظلم الناس يظلم . وهذا معنى كثير الورود في الشعر القديم .

(٢) الفصل الافلاطوني ، اي التفريق النظري البعيد عن الواقع .

روح الغرب

•

حاولنا في الفصل السابق ان نضع موجزاً للأسس الادبية في الاسلام . ونحن ندرك بسهولة ان الحضارة الاسلامية اتم ما عرفه التاريخ من اشكال الدولة الالهية . فالاعتبار الديني ، او وجهة النظر الدينية ، يسود هنا كل شيء ويظهر في اساس كل شيء . ولو اننا وازنا بين هذا الاتجاه وبين اتجاه الحضارة الغربية لعجبنا من هذا الاختلاف العظيم في استشرافهما الامور .

لقد سيطر على الغرب الحديث في اوجه نشاطه وجهوده اعتبارات من الانتفاع العملي [المادي] ومن التوسع الفعال فقط . وقد كان هدفه الذاتي انما هو المعالجة والاكتشاف لكوامن الحياة من غير ان ينسب الى تلك الحياة حقيقة ادبية ما في ذاتها. اما قضية معنى الحياة والغاية منه فقد فقدت منذ زمن بعيد ، في نظر الاوروبي الحديث، جميع اهميتها العملية . واصبح المهم لديه قضية واحدة فقط هي تلك الاشكال التي تستطيع الحياة ان تتلبس بها سواء أكان بإمكان الجنس البشري - كما هو اليوم - ان يتقدم نحو السيطرة النهائية على الطبيعة او لم يكن ذلك . ان الاوروبي الحديث يجيب على السؤال الأخير بالايجاب، وها هنا موضع يتفق

فيه والاسلامَ ، فقدقال الله تعالى في القرآن الكريم عن آدم وذريته : « إنى جاعل في الأرض خليفة » (البقرة ٣٠) ، وهذا يعني أن الانسان قد قدّر له أن يسود في الأرض وأن يترقى عليها . ولكن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية ووجهة نظر الغربي إنما هو في نوع الرقي الانساني. إن الغرب الحديث يعتقد بإمكان تحسّن روحي مستمر للبشرية في مجموعها ، وذلك عن طريق الرقي العملي وتطور التفكير العلمي . أما وجهة النظر الاسلامية فهي على كل حال مناقضة لهذه النظرة الغربية الآلية. إن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحي لمجموع البشر صفة كامنة : أي أنه شيء قد وضع في بناء الطبيعة البشرية بما هي طبيعة . إن الاسلام لا يسلم أبداً — كما يفعل الغرب — بأن الطبيعة ، في معناها اللافردي العام ، تخضع لعملية تبدل ارتقائي وتحسن كالذي يتفق للشجرة مثلا في نموها : ذلك لأن أساس تلك الطبيعة ، أي النفس الانسانية ، ليس كمية حيوية عضوية فحسب . والخطأ الأساسي في التفكير الاوروبي الحديث ، حينما يعتبر التزيد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الانساني الروحي والادبي ، كان ممكناً فقط بارتكاب خطأ أساسي آخر هو تطبيق القواعد الحيوية العضوية على حقائق غير حيوية . ذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها. أما من الناحية الثانية فإن الاسلام المبني على أوجه من الادراك المطلق يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش . ومع ان الرقي المادي والرقي الروحي في الحقيقة لا يعارض أحدهما الآخر ،

كما يرى الاسلام أيضاً، فانهما وجهان من الحياة الانسانية مختلفان تماماً . وليس لأحدهما بالآخر علاقة ما ، لا سلباً ولا ايجاباً ، وقد يمكن أن يوجدا أو لا يوجدا معا. وبينما نرى الاسلام يقبل بوضوح إمكان الرقي المادي للانسانية في مجموعها ، ذلك الرقي الخارجي ، ويحث على الرغبة فيه ، نجده ينكر بوضوح كالوضوح الاول إمكان تحسن الانسانية في مجموعها من طريق الرقي الاجتماعي. إن العنصر الفعال في الرقي الروحي مقصور على كل انسان بمفرده، وإن الخط البياني الوحيد الممكن في التطور الروحي والادبي انما هو ممتد بين ولادة الفرد وبين موته . اننا لا نستطيع ان نتقدم نحو الكمال كمجموع، بل على كل فرد أن يكدح الى هدفه الروحي في نفسه ، وعلى كل فرد أن يبدأ ذلك الكدح بنفسه من جديد . هذا الاستشراف الفردي نفسه لمصاير الانسان الروحية يتوازن ويتأكد من طريق غير مباشرة بذلك الادراك الاسلامي البين للبيئة الاجتماعية وللتعاون الاجتماعي معاً. وان من واجب البيئة الاجتماعية ان تنظم الحياة الخارجية على شكل يمكن الفرد من أن يجد فيه اقل عدد ممكن من الصعاب وأكبر قدر من التشجيع في سبيل جهوده . وهـــذا سبب اهتمام القانون الاسلامي ، أي الشرع ، بالحياة الانسانية من ناحيتها الروحية وناحيتهـــا المادية على السواء ، وفي وجهتيها الفردية والاجتماعية .

إن إدراكاً مثل هذا ، كما مر من قبل ، ممكن فقط على أساس اعتقاد إيجابي بوجود النفس الانسانية ، وبوجود هدف مطلق للحياة الانسانية . أما الاوروبي الحديث – بما انطوى عليه من جحود مهمل

لوجود النفس على أنها حقيقة عملية – فلم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما : لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار ، في الحياة ، وراءه ظهرياً .

إن الاتجاه الديني مبني دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملا ، وأننا نحن البشر مجبرون على أن نخضع أنفسنا لمقتضياته . **ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة الى خضوع ما الا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . ان معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ، ولكن الرفاهية وان فلسفتها الحقيقة المعاصرة انما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة ، وكلا هذين موروث عن المدنية الرومانية القديمة .**

إن ذكر المدنية الرومانية على أنها – الى حد ما على الاقل – مسؤولة من ناحية القرابة عن المادية في اوروبة المعاصرة قد يكون له رنة استغراب في آذان أولئك الذين سمعوا الموازنات الكثيرة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الاسلامية الاولى . فكيف يكون مثل هذا الفرق البارز بين الآراء الاساسية في الاسلام وبينها في الغرب الحديث ممكناً ، إذا كان المظهر السياسي في الماضي قريباً في تينك المدنيتين ؟ الجواب على ذلك بسيط : إنهما لم تكونا متقاربتين . وان تلك الموازنة الشائعة والتي كثيراً ما يستشهد بها القوم ليست سوى واحدة من السخافات الكثيرة التي تغذى بها عقول الجيل الحاضر ، إذ ليس ثمة شيء ما مشترك بين الامبراطوريتين الاسلامية والرومانية ما عدا أنهما امتدتا فوق اراض شاسعة وشعوب متباينة . ولكن كلتا الامبراطوريتين

كانت في مدة بقائها خاضعة لقوى توجهها توجيهاً خاصاً ، وكان عليها أن تحقق أهدافاً تاريخية متباينة . ثم أننا نلاحظ من حيث نشوء الامبراطوريتين أيضاً فارقاً عظيماً بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية الرومانية . لقد اقتضى الامبراطورية الرومانية الف عام حتى نمت الى اتساعها الجغرافي الكامل وحتى بلغت نضجها السياسي ، بينما الامبراطورية الاسلامية بزغت ثم بلغت أشدها في مدة وجيزة تبلغ نحو ثمانين عاماً . وكذلك نجد أن انقراض الامبراطورية الرومانية ، الذي نتج نهائياً من هجرات الهون والقوط ، تمّ في قرن واحد ، وكان تاماً حتى أنه لم يبق من تلك الامبراطورية سوى بضعة معالم من الادب والبناء . والامبراطورية البيزنطية التي يظنها بعضهم عادة وارثة الامبراطورية الرومانية ، كانت وارثة لها بمعنى انها استمرت في الحكم على بعض الاراضي التي كانت يوماً ما جزءاً من الامبراطورية الرومانية . أما الامبراطورية الاسلامية المنطوية في الخلافة فقد خضعت - على خلاف ذلك - لبعض التبديل في حدودها ، ولاختلاف الأسر الحاكمة الكثيرة المتعاقبة عليها في أثناء حياتها الطويلة ، ولكن بناءها ظل في أساسه واحداً . وأما ما يتعلق بالغزوات الخارجية على الامبراطورية الاسلامية حتى غزوة التتر (المغول) التي كانت أعنف من جميع ما خبرته الامبراطورية الرومانية ، فإنها لم تستطع أن تهز شيئاً من النظام الاجتماعي ولا من الحياة السياسية المستمرة في امبراطورية الخلفاء ، مع أنها بلا ريب قد ساعدت على الركود الاقتصادي والفكري في الاعصر التي تلت . وفي مقابل القرن

الواحد الذي كان كافياً لتقويض الامبراطورية الرومانية كانت الحاجة ماسة إلى أكثر من ألف ومائتي عام من الانحلال البطيء حتى يتم الانهيار السياسي نهائياً، ذلك الانهيار الذي تمثل في إلغاء الخلافة العثمانية ، والذي تبعته العلامات الاولى فقط للتفكك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الاسلامي .

هذا الامر يحملنا على الاستنتاج بان القوة الباطنة والتماسك الاجتماعي في العالم الاسلامي كانا ارقى من كل شيء خبره العالم من طريق التنظيم الاجتماعي، حتى أن الحضارة الصينية التي انكشفت عن قوى مماثلة في المناعة طيلة قرون عديدة ، لا يمكن أن تتخذ هنا موضوعاً للمقارنة . إن الصين تقع على طرف قارة ، ولقد بقيت حتى نصف قرن مضى - أي إلى نهضة اليابان الحديثة - وراء متناول كل دولة منافسة . وأن حروب التتر في أيام جنكيز خان وخلفائه لم تكد تمس أطراف الامبراطورية الصينية . أما الامبراطورية الاسلامية فقد ترامت في ثلاث قارات وكانت في أثناء ذلك كله محاطة بدول معادية لها قوة عظيمة وفيها حيوية بالغة . ومنذ فجر التاريخ ، والشرق الأدنى - كما ندعوه - ، هو البؤرة البركانية لقوى اجتماعية وفكرية متنازعة ، ولكن حصانة النظام الاجتماعي الاسلامي ظلت - الى عهد قريب على الاقل - منيعة .

وليس لنا ان نبحث بعيداً عن تعليل لهذا المشهد الرائع : ان تعاليم القرآن الكريم الدينية خلقت هذا الاساس المتين ، وسنة رسول الله اصبحت اطاراً من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم. وأما الامبراطورية الرومانية فلم يكن لها مثل هذا العنصر الروحي

ليحفظ عليها كيانها ، ومن أجل ذلك انهارت بسرعة .

ولكن لا يزال هنالك فارق آخر بين تينك الامبراطوريتين العظيمتين، **فبينما لم يكن في الامبراطورية الاسلامية قوم ممتازون وبينما خضعت القوة فيها لنشر فكرة اعتبرها حملة المشاعل فيها الحقيقة الدينية السامية، كانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده . وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً . وان « العدل الروماني » الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم**[1] . ومن البيّن أن اتجاهاً كهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادي خالص للحياة وللحضارة « إدراك مادي هذّبه على التأكيد ذوق فكري ، ولكنه على كل حال بعيد عن جميع القيم الروحية » . ان الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية : لقد كانت أشباحاً سُكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحياة الحقيقية . بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت مثل ذلك ولكن لم يكن ينتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية .

تلك كانت التربة التي نمت فيها المدنية الغربية الحديثة . ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخر كثيرة في أثناء تطورها ، ثم

---

(١) وهذا هو موقف الفرنسيين والانكليز والهولنديين وسواهم من الامم المستعمرة : انهم يستغلون ثروات البلاد التي يحكمونها ويستغلون جهود أهلها في سبيل الترفيه عن شعبهم هم فقط .

إنها بطبيعة الحال قد بدلت وحورت في ذلك الارث الثقافي الذي ورثته عن رومة في اكثر من ناحية واحدة . ولكن الحقيقة الباقية ان كل ما هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والاخلاق يرجع الى المدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومة القديمة كان نفعياً بحتاً ولا دينياً ــ لا على الافتراض، بل على الحقيقة – فكذلك هو الجو في الغرب الحديث . ومن غير ان يكون لدى الاوروبي برهان على بطلان الدين المطلق، ومن غير ان يسلم بالحاجة الى مثل هــذا البرهان ، ترى التفكير الأوروبي الحديث ــ بينما هو يتسامح بالدين وأحياناً يؤكد أنـــه عرف اجتماعي ــ يترك ، على العموم ، الاخلاق المطلقة خــارج نطاق الاعتبارات العملية. **ان المدنية الغربية لا تجحد الله البتة، ولكنها لا ترى مجالا ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي.** لقد اصطنعت فضيلة من العجز الفكري في الانسان، أي من عجزه عن الاحاطة بمجموع الحياة . وهكذا يميل الاوروبي الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التي ينتظر منها على الاقل ان تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة . **وبما ان قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك، فان العقل الاوروبي يميل بداءة الى اسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية .**

وهنا يعرض سؤال : كيف يمكن لهذا الاتجـــاه ان يتفق وطريقة التفكير المسيحي ؟ أليست النصرانية ــ المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية ــ عقيدة مبنية على

الأخلاق المطلقة كما هي الحال في الاسلام ؟ لا شك في أنها كذلك .
ولكن حينئذ لا يمكن أن يُخطَّأ خطأ أفدح من أن نعتقد أن المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية . إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تُطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ، ويمكن التعبير عنها كما يلي : بما أننا لا نعرف شيئاً معيناً – من طرق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب – لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد – فإن من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب إذن في أن هذا الاتجاه ، الذي تتميز به المدنية الغربية الحديثة لا يجد قبولاً في التفكير الديني المسيحي كما لا يجد قبولاً في الإسلام أو في كل دين آخر ، وذلك لأنه لا ديني في جوهره . وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخياً عظيماً . ان النصرانية ساهمت في جزء يسير جـداً من الرقي العلمي المادي الذي فاق به الغرب ، في مدنيته الحاضرة كل ما سواه . وفي الحق أن ذلك النتاج قد برز من كفاح اوروبة المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة .

لقد بقي الروح الاوروبي قروناً طوالاً يرزح تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة واحتقار الطبيعة . . ومن الجلي أن مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا بتحسين أحوال الحياة على الأرض . وفي الحقيقة ، إن الفكر

الأوروبي قد أخضع زماناً طويلاً في سبيل إدراك سيء للوجود الانساني . ففي أثنـــاء العصور الوسطى حينما كانت الكنيسة مقتدرة على كل شيء هنالك، لم يكن لأوروبة نشاط ما في حقول البحث العلمي . حتى أنهـــا خسرت كل صلة حقيقية بالنتاج الفلسفي : اللاتيني والاغريقي – ذلك النتــاج الذي سبق له أن انبثق من الثقافة الأوروبية .

[وخلاصة القول إن المدنيــة الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنيــة ، وهي لم تؤخذ من النصرانية – التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة – سوى الطلاء الخارجي فحسب. ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية ماديــة لا تؤمن بغير القوة . من أجل ذلك نرى فرقاً عظيماً بينها وبين الاسلام ، الذي بُني على الروح والأخلاق والمثل العليـا ، تلك الأسس التي خلقت في الاسلام مناعة ذاتية جبارة . ولا ريب في أن هــذه الحقيقة الثمينة قد انكشفت لغلادستون – وزير بريطانيا الأول وأحد موطدي أركان الإمبراطورية في الشرق – حينما قـال : « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان » .] •

لقد ثار الفكر الأوروبي [مراراً] ، ولكن الكنيسة كانت تقهره مرة بعد أخرى . إن تاريخ العصور الوسطى مليء بهـذا الكفاح المرير بين عبقرية أوروبة وبين روح الكنيسة .

[ولم تكتف الكنيسة الرومانية في العصور الوسطى بأن تهيء الجو المناسب للحروب الصليبية ، تلك الحروب التي كانت وصمة

عار في جبين الانسانية ، بل شنت على العلوم والفنون التي كانت تشع يومذاك من الأندلس حرباً لا هوادة فيها ولا لين .]

إن تحرير العقل الأوروبي من القيود العقلية التي فرضتها عليه الكنيسة المسيحية قد اتفق في أثناء النهضة التي كانت مدينة إلى حد بعيد لذلك العامل الثقافي الذي كان العرب ينقلونه إلى الغرب .

وكل ما كان خيراً في الثقافة الإغريقية القديمة ثم في العصر الهيلاني التالي، فإن العرب بعثوه في علومهم وزادوا فيه في القرون التي تلت تأسيس الامبراطورية الاسلامية الأولى . أنا لا أقول إن تقبّل العرب والمسلمين لنتاج الفكر الهيلاني كان على وجه العموم فائدة لا شك فيها لهم – إذ أنه لم يكن كذلك. ولكن مع كل العقبات التي يمكن أن تكون الثقافة الهيلانية قد خلقتها في سبيل تقدم المسلمين بالمعنى الاسلامي الصحيح ، فإن تلك الثقافة نفسها كانت باعثاً قوياً عن طريق العرب أنفسهم في سبيل نهضة أوروبة .

إن العصور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة في أوروبة : كانت العلوم في ركود ، وكانت الخرافات سائدة ، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم . في ذلك الحين أخذ النفوذ الاسلامي في العالم – في بادىء الأمر ، بمغامرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الاسلامية الزاهرة في إسبانيا المسلمة في الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التي أنشأتها جمهوريتا جنوه والبندقية – أخذ هذا النفوذ يقرع على الأبواب الموصدة دون المدنية العربية . وأمام تلك الأبصار المشدوهة ، أبصار العلماء والمفكرين الأوروبيين ، ظهرت مدنية جديدة – مدنية

مهذبة راقية خفاقة بالحياة ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم أصبحت في أوروبة من قبل نسياً منسياً . **ولكن الذي صنعه العرب كان اكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة ، لقد خلقوا لأنفسهم عالماً علمياً جديداً تمام الجدة. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة الى الغرب. ولسنا نبالغ اذا قلنا ان العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه لم يدشن في مدن اوروبة النصرانية، ولكن في المراكز الاسلامية : في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة .**

إن أثر هذا النفوذ في أوروبة كان عظيماً. لقد بزغ، مع اقتراب الحضارة الاسلامية، نور عقلي في سماء الغرب ملأها بحياة جديدة وبتعطش إلى الرقي. ولم يأت التاريخ الأوروبي بأكثر من اعتراف عادل بقيمة الحضارة الاسلامية حينما سمى **عصر التجديد الذي نتج من الاحتكاك الحيوي بالثقافة الاسلامية** «عصر البعث»[*] فانه كان في الحقيقة ولادة لأوربة ، ولم يكن أقل من ذلك[١] .

إن مجاري الشباب التي كانت تنبع في العالم الاسلامي مكنت خيرة العقول في أوروبة من أن تناضل بعزم جديد تلك السيطرة البعيدة التي كانت للكنيسة المسيحية . ولقد كان لهذا النضال في أول الأمر مظهر خارجي تمثل في حركات الاصلاح الديني التي نبعت

---

* عصر النهضة Renaissance كما يقال في التاريخ الحديث .

(١) لا ريب ان انصراف العرب في الاندلس – في العصور الوسطى – الى العلوم والفنون جعلهم الى حد ما يهملون الناحية العسكرية الحربية في حياتهم فشجع ذلك الكنيسة على تأليب الأوروبيين على العرب ، فكان ذلك سبباً من اسباب ضياع الأندلس .

في وقت واحـــد تقريباً في البلدان الأوروبية المختلفة ، والتي كانت الغاية منها تكييف طريقة التفكير المسيحي حسب مقتضيات الحياة الجديدة .

ولقد كانت تلك الحركات عاقلة حكيمة في السبل التي سلكتها . ولو انها لقيت نجاحاً روحياً حقيقياً لاستطاعت أن توجد توفيقاً بين العلم وبين التفكير الديني في أوروبة[1] ولكن النتائج السيئة التي خلّفتها كنيسة العصور الوسطى كانت قد اصبحت أبعد أثراً من أن تزال بإصلاح ديني ، بإصلاح ما عتم ان انقلب نزاعاً سياسياً بين أقوام ذوي أغراض دنيوية . وبينما كانت العقود والقرون تنقضي كانت السلطة الروحية للتفكير الديني المسيحي تضعف شيئاً فشيئاً . وفي القرن الثامن عشر أزيلت سيطرة الكنيسة تماماً بفعل الثورة الفرنسية في فرنسة نفسها ، ثم بآثار تلك الثورة في البلاد الأخرى .

وفي ذلك الحين أيضاً تراءى لنا كما لو أن مدنية روحية جديدة طليقة من استبداد الكنيسة في العصور الوسطى ، تتهيأ لها أسباب النمو في أوروبة . ولقد ظهر فعلاً في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر للميلاد عدد من أحسن الشخصيات الأوروبية وأقواها من الناحية الروحية في عالم الفلسفة والأدب والموسيقى ، ولكن هذا الادراك الديني الجديد ظل قاصراً على أشخاص قلائل . أما السواد الأعظم في أوروبة فلم يكن يستطيع

---

(١) يشير المؤلف هنا الى حركات الاصلاح الديني ، ومن قادتها ويكليف في انكلترا وزونغلي في سويسرة ولوثر في ألمانيا وكلفن في فرنسة . ومن هذه الحركات نشأت البروتستانتية .

أن يهتدي إلى الاتجاه الديني الصحيح بسرعة ، بعد أن قضى ذلك الردح الطويل من الزمن سجيناً لعقائد دينية لا صلة لها بجهود الانسان الطبيعية ... ومن أجل ذلك رفض هذه العقائد ورفض معها الدين أجمع .

ثم إن بدء عصر الصناعة وضجيج التقدم المادي المدهش وجّها البشر نحو منافع جديدة ، وهكذا ساهم ذلك كله في إحداث الفراغ الديني الذي تلا ذلك العهد في اوروبة . في هذا الفراغَ اتخذت المدنية الغربية اتجاهاً مؤسفاً - مؤسفاً من وجهة نظر أولئك الذين ينظرون الى الدين على أنه أقوى الحقائق في الحياة الانسانية .

ولما تحرر العقل الاوروبي من عبوديته الأولى للكنيسة تخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين تلك الحدود ووطد عزمه تدريجياً على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الانسان : ومن ثنايا هذا الخوف الباطن ، ولئلا تعود تلك القوى التي تدعي السلطان الروحي مرة ثانية إلى التغلب ، أقامت أوروبة نفسها زعيماً بكل ما هو ضد الدين مبدئياً وعملياً . لقد رجعت أوروبة إلى ارثها الروماني .

[وهنا أضيف على هذا الارث الروماني الوثني المادي عنصر مادي جديد وأخذوا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل المسبوك الذي صنعه لهم هرون في غياب موسى من حلي نسائهم[1] .

(١) راجع التوراة سفر الخروج ، الاصحاح الثاني والثلاثين . ثم راجع ايضاً القرآن الكريم ، سورة البقرة (٢ : ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣) وسورة النساء (٤ : ٥٢) وسورة الاعراف (٧ : ١٤٧ ، ١٥١) وسورة طه (٢٠ : ٨٨) .

وهكذا أصبح المال إلهاً جديداً في الغرب يُعبد من دون الله ، وقامت في عواصم أوروبا أسواق المال والبورصة مثـل ريجنت ستريت في لندن ووول ستريت في نيويورك . ثم جعل كهان هذا الإله الجديد يستغلون الناس بكل سبيل، يجمعون من شعوب الأرض دريهماتهم القليلة ليخزنوها ملايين في صناديقهم الحديدية . ولما زاد شرههم إلى المال أخذوا يثيرون الحروب بين الأمم ثم يبيعون المتحاربين كلهم سلاحاً لا يهمهم من مات ولا يهمهم مـن قتل ولا من خربت أرضه ودياره ولا من جاع أوعطش أوعري او ظل جاهلاً ، ما داموا هم يجمعون المال في صناديقهم ليزيدوا به نفوذهم السياسي والعسكري في العالم ثم ليستخدموا هذا النفوذ من جديد في سبيل قناطير جديدة من الأموال، وهكذا دواليك.]

ولا لوم على امرىء يقول : ليس الذي مكن الغرب من أن يبلغ هذا الرقي الباهر تفوّق كامن في النصرانية ، وذلك لأن هذا الرقي إنما هو في الحقيقة أثر من آثار مقاومة القوى العقليـة في أوروبة لكل مبدأ من مبادىء الكنيسة .

وليس هنا مجال التعمق في الصلات الخاصة بين النصرانية وبين المدنية الأوروبية الحاضرة. ولقد حاولت أنا أن أعرض اثنين من الأسباب ـ ولعلهما أهم الأسباب التي كانت بها تلك المدنية مناهضة للدين تمام المناهضة في مدركاتها وفي طرقها : إن أحدهذه الأسباب وراثة أوروبة للمدنية الرومانية مع اتجاهها المادي التام فيما يتعلق بالحياة الانسانية وقيمتها الذاتية، والثاني ثورة الطبيعة الانسانية على احتقار النصرانية للدنيا وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود

المشروعة في الانسان. وقد كانت هذه الثورة ظافرة تماماً، ظافرة إلى حد جعل الفرق النصرانية والكنائس المختلفة مرغمة على أن تلائم شيئاً فشيئاً بين بعض عقائدها وبين الأحوال الاجتماعية والعقلية المتبدلة في أوروبة، [بعد أن شعرت بخطر حقيقي يتهددها، ففضلت أن تتنازل عن بعض طقوسها وتتساهل في بعض مبادئها لئلا تخسر بعد ذلك كل شيء.] وهكذا بدلاً من أن تؤثر النصرانية في حياة أتباعها الاجتماعية وتبدل فيها - كما يقضي الواجب الديني الأول - فانها سكتت عما أقره العرف، وكانت في نفسها ستاراً للمشروعات السياسية. ثم إن للنصرانية اليوم في نظر السواد السواد الأعظم معنى شكلياً(*) فقط، كما كانت حال آلهة رومة، تلك الآلهة التي لم يكن يسمح لها، ولا ينتظر منها، أن يكون لها نفوذ حقيقي ما على المجتمع. ولا ريب في أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم - ولكن هؤلاء شواذ فقط. إن الأوروبي العادي، سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً، رأسمالياً أم بلشفياً، صانعاً أم مفكراً - يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج «طليقة من ظلم الطبيعة».

إن هياكل هذه الديانة انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء،

(*) يقصد المؤلف من حكمه هذا نصارى اوروبا (الناقل)

وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران . وان النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الاخلاقية في مسائل الفائدة العملية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي .

إننا نجد في التبدل الأساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن ، تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيان شيئاً فشيئاً . وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية ـ كالقدرة الفنية [العلمية التقنية] والوطنية والشعور القومي — هي اليوم موضع للمديح ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول بينما الفضائل التي ظلت تعتبر إلى اليوم ، من جهة قيمتها الخلقية الخالصة كالحب الأبوي والعفاف ، تخسر من قيمتها بسرعة لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة . إن العصر الذي كان فيه الحرص على الروابط المتينة في الأسرة من أجل سير الجماعات والعشائر قد تبدل الآن في الغرب الحديث بعصر من النظام الاجتماعي أوسع مدى . والمجتمع الذي يكون في أساسه فنياً آلياً — إذ ينظم بسرعة متزايدة على أساس آليّ خالص — لا يكون سلوك الابن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعية كبرى ، ما دام أمثال هؤلاء الأفراد يتخالقون في حدود اللياقة العامة التي يفرضها المجتمع على صلات افراده . وبالتالي فان الوالد الاوروبي يفقد في كل يوم شيئاً من

سلطته على ابنه ، وكذا الابن يفقد من احترامه لابيه . ولقد أصبحت صلاتها المتبادلة مغلوبة أو – من أجل كل هدف عملي – مقضياً عليها ، وذلك لافتراض مجتمع آلي يميل إلى إلغاء كل امتياز لفرد ما على آخر ، ثم – اذا اعتبرنا تطور هذه الفكرة منطقياً – إلى الغاء الامتياز الناتج من القرابة في الأسرة . ان الصلة القديمة بين الاب وابنه تصبح مع الايام مهجورة .

والى جنب هذا يسير الانحلال التدريجي لما يسمونه «الآداب الجنسية القديمة». إن العفاف والاحصان يصبحان مع الأيام خبراً ماضياً في الغرب الحديث لأنهما مفروضان من طريق الخلق فحسب ، وليس للاعتبارات الخلقية أثر مباشر محسوس في رفاهية الشعب المادية . وهكذا نجد أن الفضائل الخلقية القديمة التي يؤيدها الدين اخذت تخلي [في البيئة العربية الاسلامية] مكانتها بالتدريج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو الى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة . اما ضبط النفس ومراقبة الصلات الجنسية فإنهما يفقدان من اهميتهما بسرعة ، وان الصلات الوحيدة الممكنة في المستقبل ستكون مستمدة – في احسن الاحوال – من اعتبارات في درس الجماعات الانسانية والتناسل .

ومن المفيد ان نلاحظ ان كلا هذين التبديلين – ذلك الذي يرجع الى صلات الاولاد بالوالدين وذلك الذي يرجع الى الصلات بين الجنسين – قد سير بهما الى نهايتهما المنتظرة في الروسية السوفياتية التي لا تمثل من الناحية الثقافية تطوراً مختلفاً في أساسه عما في سائر العالم الغربي . بل على العكس من ذلك ، يبدو لنا أن

هذه التجربة الشيوعية ليست شيئاً آخر سوى التناهي وسوء البدء لتحقيق تلك الميول في المدنية الغربية الحديثة ، تلك التي هي بلا شك لا دينية والتي هي ، في هدفها الأقصى ، لا دينية ايضاً. ويمكن ان يكون ذلك العداء الحاد بين الغرب الرأسمالي وبين البلشفة ، في أساسها راجعاً فقط الى اختلاف الخطى بين تينك الحركتين المتوازيتين في جوهرهمـــا وفي انطلاقهما نحو هدفهما الأقصى . **وان تشابههما الباطني سيصبح بلا شك ابرز فأبرز في المستقبل ، ولكن منذ الآن يظهر ان الميل الاساسي في الرأسمالية الغربية وفي البلشفية كلتيهما انمـــا هو التخلي عن شخصية الانسان الروحية وفضائله الخلقية للمقتضيات المادية في مجموع آلي يدعونه «المجتمع» حيث لا يكون الفرد الا سناً في دولاب[1].**

والنتيجة الوحيدة الممكنة هي ان مدنية من هذا النوع انما هي سم زعاف لكل ثقافة مبنية على القيم الدينية. وسؤالنا الصحيح عما اذا كان من الممكن ان نكيف اسلوب التفكير والحياة في الاسلام حسب مقتضيات المدنية الغربية ، يجب ان يجاب عليه بالنفي . ان أول اهداف الاسلام واهمها انما هو الرقي الداخلي ، وهكذا تتغلب الاعتبارات الخلقية على اعتبارات الانتفاع الخالص. اما في المدنية الغربية الحديثة فالأمر معكوس تماماً. ان اعتبارات الانتفاع المادي تسود جميع مظاهر النشاط الانساني ، اما الاخلاق فتنفى الى زاوية مظلمة من الحياة ثم يحكم لها بوجود نظري خالص

(٢) اي فرداً يسيره المجموع العظيم كما ان اسنان الدولاب تسير في الاتجاه الذي يسير فيه الدولاب نفسه فقط . (الناقل)

من غير ان يكون لها قوة مؤثرة في المجتمع . ان الوجود نفسه في مثل هذه الاحوال رياء ، وهكذا تجد ان ذوي النبل العقلي بين المفكرين الاوروبيين المعاصرين معذورون بالاضافة الى انفسهم ، اذا كانوا في اثناء تكرار النظر الى المصاير الاجتماعية في المدنية الغربية يتحاشون الاشارة الى الاخلاق المطلقة . اما الذين هم اقل نبلاً منهم - اي اولئك الذين هم اقل وضوحاً في اتجاههم الخلقي - ففكرة الاخلاق المطلقة لاتزال باقية عندهم على انها عنصر أصمّ في التفكير ، اشبه بما يضطر الرياضي الى العمل به من الاعداد الصم التي لا تمثل في نفسها شيئاً محسوساً ولكنها (هذه العناصر) على كل حال اشياء مرغوب فيها لسد اماكن الفراغ في الخيـــال ، تلك الاماكن التي اقتضتها قيود البناء للعقل الانساني .

ان مثل هذا الموقف المذبذب من الاخلاق لا يتفق بكل تأكيد مع الاتجاه الديني ، ومن اجل ذلك كانت أسس المدنية الغربية الحديثة لا توافق الاسلام . **على ان هذا يجب الا يحول ابداً دون امكان اخذ المسلمين من الغرب ببعض البواعث في ميدان العلوم المجردة والعلوم التجريبية ، ولكن صلاتهم الثقافية يجب ان تبدأ عند هذا الحد وتنتهي عنده ايضاً . اما ان يخطو المسلمون الى أبعد من ذلك او ان يقـــلدوا المدنيـــة الغربية في روحها واسلوب حياتها وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل ، الا اذا سُددت ضربة قاضية الى الاسلام كدولة إلهية وكدين عملي .**

شبح الحروب الصليبية

●

هنالك بالاضافة الى فقدان التجانس الروحي ، سبب آخر يحمل المسلمين على ألاّ يقلدوا المدنية الغربيـة : إنه التجارب التاريخية التي اصطبغت صباغاً شديداً بعداوة غريبة للاسلام .

وهذا ايضاً، الى حد ما، إرث اوروبة من اليونان والرومان. **ان اليونانيين والرومانيين نظروا الى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون. أما كل من كان أجنبياً عنهم ، وعلى الأخص اولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط، فقد كان اليونانيون والرومانيون يُطلقون عليهم لفظ « البرابرة ». ومنذ ذلك الحين والاوروبيون يعتقدون ان تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع . ثم ان احتقارهم الى حد بعيد او قريب لكل ما ليس اوروبياً من أجناس الناس وشعوبهم قد أصبح احدى الميزات البارزة في المدنية الغربية .**

على ان هذا وحده لايكفي لإظهار ما يكنه الاوروبيون نحو الاسلام خاصة. وهنا، وهنا فقط (نعني فيما يتعلق بالاسلام) لا تجد موقف الاوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الاديان والثقافات : بل هو كره عميق

الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد . وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ ايضاً بصبغة عاطفية قوية. قد لا تتقبل اوروبة تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير. إلا انها حالما تتجه إلى الاسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب. حتى ان أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الاسلام . ويظهر في جميع بحوثهم على الاكثر كما لو ان الاسلام لا يمكن أن يعالج على انه موضوع بحتٌ في البحث العلمي ، بل على انه متهم يقف أمام قضاته. ان بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصياً باجرام موكله لا يستطيع اكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور « اعتبار الأسباب المخففة ». وعلى الجملة فان طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها اكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى، أي ان تلك الطريقة لم يتفق لها ابداً ان نظرت في القرائن التاريخية بتجرد، **ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد املاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون ان يصلوا اليه مبدئياً .** واذا تعذر عليهم الاختيـار العرفي للشهود ، عمدوا إلى اقتطاع اقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من

المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر ، أي من قبل المسلمين أنفسهم .

وليست نتيجة هـذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للاسلام وللأمور الاسلامية تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقو اوروبة. وليس ذلك قاصراً عـلى بلد دون اخر . إنك تجده في انكلترة والمانية ، في الروسية وفرنسة ، وفي إيطالية وهولندة ـ وبكلمة واحدة ، في كل صقع يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الاسلام. ويظهر انهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقية أو خيالية ـ ينالون بها من الاسلام عن طريق النقد . وبما ان هؤلاء المستشرقين ليسوا سلالة خاصة ، ولكنهم طلائع مدنيتهم وطلائع بيئتهم الاجتماعية ، فإننا من أجل ذلك يجب ان نصل ضرورة إلى أن نستنتج ان في العقل الاوروبي على العموم ـ لسبب ما ـ ميلاً عن الاسلام بما هو دين وبما هو ثقافة . إن سبباً واحداً لذلك يمكن أن يُعزى الى الإرث الذي قسم العالم يومذاك « اوروبيين » و « برابرة » . وأما السبب الآخر وهو أشد صلة مباشرة بالاسلام ، فيمكننا ان نتبعه اذا ولّينا ابصارنا شطر الماضي ، وخصوصاً الى تاريخ العصور الوسطى .

ان الاصطدام العنيف الاول بين اوروبة المتحدة من جانب وبين الاسلام من الجانب الآخر ، أي الحروب الصليبية ، يتفق مع بزوغ فجر المدنية الاوروبية . في ذلك الحين اخذت هذه المدنية ـ وكانت لا تزال على اتصال بالكنيسة ـ تشق سبيلها الخاص بعد تلك القرون

المظلمة التي تبعث انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب اوروبة ربيعاً منوّراً جديداً. وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التي قام بها القوط والهون والافاريون. ولقد استطاعت اوروبة ان تتملص من تلك الاحوال الخشنة في اوائل القرون الوسطى، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً، وعن طريق ذلك الوعي كسبت ايضاً حساً مرهفاً. ولما كانت اوروبة في وسط هذا المأزق الحرج، حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائي بالعالم الاسلامي. لقد كانت ثمة حروب بين المسلمين والاوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية : كانت فتوح العرب في صقلية والاندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسة. ولكن هذه المعارك كانت قبل ان تستيقظ اوروبة الى وعيها الثقافي الجديد، فاتسمت من اجل ذلك ، ومن وجهة النظر الاوروبية على الاقل، بطابع ذي نتائج محلية ، ولم تكن تلك المعارك قد فهمت بعد على وجهها الحقيقي. إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الاول والمقام الأهم موقف اوروبة من الاسلام لبضعة قرون تتلو. ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لأنها حدثت في اثناء طفولة اوروبة ، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها ، وكانت لا تزال في طور تشكلها والشعوب كالأفراد، اذا اعتبرنا ان المؤثرات العنيفة التي تحدث في اوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية. وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً، حتى أنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير اكثر من اتسامه

بالعاطفة ان تمحوها الا بصعوبة ، ثم يندر ان تزول آثارها تماماً .
وهكذا كان شأن الحروب الصليبية ، فانها احدثت اثراً من أعمق الآثار وابقاها في نفسية الشعب الاوروبي . وان الحمية الجاهلية العامة التي اثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن ان تقارن بشيء خبرته اوروبة من قبل، ولا اتفق لها من بعد. لقد اجتاحت القارة الاوروبية كلها موجة * من النشوة ، كانت – في مدة ما على الاقل – عنفواناً تخطى الحدود التي بين البلدان والتي بين الشعوب والتي بين الطبقات. ولقد اتفق في ذلك الحين، وللمرة الاولى في التاريخ، ان اوروبة ادركت في نفسها وحدة – ولكنها وحدة في وجه العالم الاسلامي. ويمكننا ان نقول من غير ان نوغل في المبالغة ان اوروبة ولدت من روح الحروب الصليبية . لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن انكلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودنماركيون [وسلاف] ، ولكن في اثناء الحروب الصليبية وُلدت فكرة «المدنية الغربية».واصبحت هدفاً واحداً تسعى اليه جميع الشعوب الاوروبية على السواء. وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للاسلام وقفت عرّاباً [1] في هذه الولادة الجديدة .

ومن حقائق التاريخ ان اول عمل للوعي الاجماعي – كما يقول – وذلك هو الدستور الثقافي للعالم الغربي ، كان يستند الى دافع تعضُدُه الكنيسة النصرانية بلا قيد ولا استثناء، بينما جميع انواع الانتاج التي تلت في الغرب كانت ممكنة ً فقط بعد ثورة فكرية على كل ما أيدته الكنيسة أو تؤيده . إن ذلك تطور فاجع من وجهة

* تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعمد .

نظر الكنيسة النصرانية ومن وجهة نظر الاسلام كلتيهما. هو فاجع للكنيسة لأنها فقدت بعد تلك البداءة المدهشة سلطتها على العقل الأوروبي ، وهو فاجع للاسلام لان الاسلام اضطر الى ان يحتمل نار الحروب الصليبية في اشكال كثيرة وتحت اقنعة متعددة سنين متطاولة فيما بعد .

إن الفظائع المروعة التي اقترفها الفرسان الصليبيون الاتقياء، وان التخريب والانحطاط اللذين خلفوهما في بلاد الاسلام التي اجتاحوها ثم خسروها ، كل هذه هي التي انبتت البذور السامة لعداوة طويلة الأمد ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب. ولولا ذلك لما كانت ثمت ضرورة الى مثل هذا الشعور. ثم لو ان الحضارتين الاسلامية والغربية كانتا ، كما نعتقد ، مختلفتين تماماً في أسسهما الروحية ونظامهما الاجتماعي لوجب ان تكونا قادرتين على التسامح فيما بينهما والعيش جنباً الى جنب على اتصال ودي . ولقد كان في الجانب الاسلامي دائماً رغبة مخلصة للتسامح المتكافىء وللاحترام. وحينما ارسل الخليفة هرون الرشيد رسله الى الامبراطور شارلمان كانت هذه الرغبة هي التي تحدو به الى ذلك، ولم يكن ذلك منه مجرّد رغبة في الاستفادة المادية من صداقة الفرنجة . اما اوروبة فكانت في ذلك الحين ، من الناحية الثقافية، فطرية الى حد انها لم تقدر هذه الفرصة حق قدرها ، وان كانت لم تُبدِ لها كرها . واخيراً ظهر الصليبيون فجأةً عند الافق وقطعوا هذه الصلات بين الاسلام وبين الغرب . ولم يكن ذلك لأن الصليبيين راموا الحرب، فان حروباً كثيرة كانت قد نشبت بين الشعوب ثم نشبت

فيما بعد في مدى التاريخ الانساني، وكم من عداوة انقلبت بعد ذلك صداقة . إلا أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً . لقد نشأ تسميم العقل الاوروبي عما شوهه قادة الاوروبيين من تعاليم الاسلام ومُثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب . في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الاوروبيين من أن الاسلام دين شهوانيـــة وعُنف حيواني ، وأنه تمسك بفروض شكلية وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . وفي ذلك الحين أيضاً نـُبز الرسول « محمـــد » بقولهم « كلبي » ! *

لقد بُذِرَتْ بذورُ البغضاء . ان حميّة الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها في أماكنَ كثيرة من اوروبة فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من « نير الوثنيين » . واما تدمير اسبانيا المسلمة (الأندلس) فقد اقتضى قروناً كثيرة حتى تم . ولما تطاول أمد هذا القتال على وجه الحصر أخذ الشعور ضد الاسلام في اوروبة يُنشب جذوره ثم يثبث . ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الاسلامي في اسبانية بعد اضطهاد بالغ الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط ، وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوبت في اوروبة على أثر ذلك ، مع العلم بأن النتائج التي تلت كانت القضاء

---

* كلبي ــ Mahound وازن بــين صورة Mahomed، وصورة Mahound، ان Ma ما . ضمير الملك للمتكلم(ضميرجر) و Houned هاوند من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب . وقد كان اولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظتين : ماهومد وماهوند .

على العلوم والثقافة والتبدلَ بها جهلَ العصور الوسطى وخشونتها.

ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث ان يخفت في اسبانية حدَث حدثٌ ثالث عظيم الأهمية زاد في فساد الصلات بين العالم الغربي وبين الاسلام: ذلك هو سقوطُ القسطنطينية في يد الأتراك. لقد كانت اوروبة ترى بقيةً من الزهو اليوناني والروماني القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) ، وكانت تنظر اليها على انها حصن اوروبة ضد «برابرة» آسية وبسقوط القسطنطينية فُتح باب اوروبة على مصراعيه للسيل الاسلامي. وفي القرون التي تلت والتي امتلأت بالحروب لم تبق عداوة اوروبة للاسلام قضيةً ذات اهمية ثقافية فحسب، بل ذات اهمية سياسية، ايضاً. وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة.

ومع هذا كله فان اوروبة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع. ان «النهضة» او إحيـاء الفنون والعلوم الأوروبية باستمدادها الواسع من المصادر الاسلامية والعربية على الأخص، كانت تُعزى في الاكثر الى الاتصال المادي بين الشرق والغرب. لقد استفادت اوروبة اكثر مما استفاد العالم الاسلامي ولكنها لم تعترف بهـذا الجميل وذلك بأن تَنْقُص[1] من بغضائها للاسلام، بل كان الامر على العكس فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادةً. ولقد كانت هـــذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة «مسلم»، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم

---

(١) نقص، ينقص فعل لازم وفعل متعد ايضاً، وقـــد استعمل هنا على انه فعل متعد.

حتى نزلت في قلب كل اوروبي رجلاً كان أم امرأة. وأغرب من هذا كله انها ظلت حية بعد جميع ادوار التبدل الثقافي. ثم جاء عهد الاصلاح الديني حينما انقسمت اوروبة شِيَعاً، ووقفت كل شيعة مدجّجة بسلاحها في وجه كل شيعة اخرى، ولكن العداء للاسلام كان عاماً فيها كلها. بعدئذ جاء زمنٌ اخذ الشعور الديني فيه يخبو ولكن العداء للاسلام استمر.

وان من ابرز الحقائق على ذلك ان الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير، وهو من ألد اعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر، كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للاسلام ولرسول الاسلام.

وبعد بضعة عقود جاء زمن اخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشيء من العطف، أما فيما يتعلق بالاسلام فان الاحتقار التقليدي اخذ يتسلل في شكل تحزّب غير معقول الى بحوثهم العلمية. وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوروبة والعالم الاسلامي غير معقود فوقه بجسر. ثم اصبح احتقار الاسلام جزءاً اساسياً من التفكير الاوروبي. والواقع ان المستشرقين الاولين في الاعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الاسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على اساس يضمن التأثير في موقف الاوروبين من «الوثنيين». غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر مع ان علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما

تحامل المستشرقين على الاسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية ، بكل مـا لها من ذيول ، في عقول الأوروبيين الاولين .

ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق ان نفوراً قديماً مثل هذا ـ وقد كان دينياً في اساسه وممكناً في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية ـ يستمر في اوروبة في زمن ليس الشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب ابداً ، فانه من المشهور في علم النفس ان الانسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها في أثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ـ والتي كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة ـ في قوتها تتحدى كل تعليل عقلي في جميع ادوار ذلك الانسان ، وهذه حال الاوروبيين مع الاسلام . فعلى الرغم من أن الشعور الديني الذي كان السبب في النفور من الاسلام قد أخلى مكانه في هذه الاثناء لاستشراف على الحياة اكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقي عنصراً من الوعي الباطني في عقول الاوروبيين . وأما درجة هذا النفور من القوة فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر ، ولكن وجوده لا ريب فيه . إن روح الحروب الصليبية ـ في شكل مصغر على كل حال ـ ما زال يتسكع فوق اوروبة ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الاسلامي موقفاً يحمـل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال .

*

نحن نسمع في المجالس الاسلامية احياناً تأكيداً مفاده ان عداوة اوروبا للاسلام – تلك العداوة التي نشأت من المنازعات العنيفة في الماضي – قد أخذت تزول شيئاً فشيئاً في ايامنا . حتى إنهم ليزعمون ان اوروبة تبدي دلائل هذا الميل الى الاسلام بما هو تعاليم دينية واجتماعية . وكثيرون من المسلمين يعتقدون ان هذا الانقلاب الاجتماعي في أوروبة اصبح قريباً. هذا الاعتقاد لا يبدو غير معقول لنا نحن الذين نعتقد ان الاسلام وحده من بين جميع النظم الدينية يستطيع ان يثبت ويفوز في وجه الانتقاد الذي لا تحزب فيه . ولقد اخبر الرسول فوق ذلك ان الاسلام سيُقبَل نهائياً على انه الدين العام للانسانية جمعاء . ولكن ليس ثمة – من جهة ثانية – قرينة ما تدل على ان هذا يمكن ان يتفق في المستقبل القريب. اما فيما يتعلق بالمدنية الغربية فإن هذا ممكن ان يتفق بعد سلسلة من الانقلابات الاجتماعية والعقلية مما يزعزع الغرور الثقافي الحاضر في اوروبة ويبدل العقلية فيها في كل شيء حتى تستطيع ان تكون مستعدة لأن تتقبل تعليلاً للحياة دينياً . ان العالم الغربي اليوم لا يزال تائهاً تماماً في اجلال الانتاج الماضي وفي الاعتقاد ان الرفاهية ، والرفاهية وحدها ، انما هي الهدف الذي يستحق ان يكدح الانسان اليه . ان مادية الغرب وجحوده للتوجيه الديني في التفكير يزيدان كل يوم قوة ولا ينقصان كما يظن بعض المتتبعين لهذه القضية من المسلمين المتفائلين . [اما خير وسيلة يجب ان يلجأ اليها المسلمون حتى يحملوا العالم الغربي على احترامهم فهي ان يكونوا اقوياء] .

لقد قيل ان العلم الحديث بدأ يعترف بوجود قوة واحدة مبدعة وراء هيكل الطبيعة المنظور ، وهذا – كما يزعم هؤلاء المتفائلون – بدء فجر لوعي ديني جديد في العالم الغربي . ولكن هذا الزعم ينكشف فقط عن سوء فهم المسلمين المتفائلين للتفكير العلمي الاوروبي . ليس ثمت من عالم رصين يستطيع ، أو استطاع من قبـل أن ينكر الترجيح بأن العالم يرجع في أصله إلى علة فعالة رئيسية . ولكن القضية على كل حال هي اليوم ، كما كانت دائماً من قبل ، متعلقة ٌ بالصفات التي ننسبها إلى تلك العلة . ان جميع النظم الدينية المطلقة تؤكد ان ثمت قوة ذات وعي وإدراك مطلقين ، وهي قوة تبدع هذا العالم وتقضي فيه أمرها حسب ناموس ما ومقصدٍ ما من غير أن تكون هي نفسُها مقيدة بقوانين ، أو بكلمة واحدة : هذه القوة هي الله . إلا أن العلم الحديث – على ما هو عليه اليوم – ليس مستعداً ولا ميالاً إلى ان يخطو الى مثل هذا الحد (وفي الواقع ان هذا خارج عن نطاق العلم) ، بل هو يترك قضية الوعي والاستقلال – او بكلمة اخرى : يترك الالوهية – في تلك القوة المبدعة خاضعة للأخذ والرد . ثم ان موقفه من ذلك شيء مثل هذا : « يمكن ان يكون كذلك ، ولكني أنا لا أعلم وليس لديّ وسيلة علمية لأن اعلم » . وقد تتطور هذه الفلسفة في المستقبل إلى نوع من اللاأدرية الشمولية حيث تتحد النفس بالمادة والغاية بالوجود والخالق بالمخلوق ، وانه لمن الصعب ان ننظر إلى هـــذا الاعتقاد على انه خطوة نحو « فكرة الله » الايجابية في الاسلام . انها هنا ليست فراقاً للمادة ، ولكنها رَفعٌ لها الى

مستوى فكري اسمى وأصفى فحسب .

وفي الواقع ، ان اوروبة لم تكن يوماً أبعد عن الاسلام منها اليوم. ان عداوتها الناشطة نحو ديننا يمكن أن تكون الآن آخذة بالميَلان، وهذا على كلحال لا يرجع إلى قَدْرها التعاليم الاسلامية حقَّ قدرها ولكنه يرجع إلىالضعفالثقافي المتزايد وإلىالتفكك في العالم الاسلامي . ولقــــد كانت اوروبة مرة على وجل من الاسلام فحملها وَجَلُها منه على ان تتخذ موقفاً عدائياً من كل شيءمصطبغ بالصِبغة الاسلامية حتىما كان يتعلق بالأمورالروحية والاجتماعية الخالصة. ولكن لما خسر الاسلام أكثر أهميته كعامل مناهض للمصالح الاوروبية ، كان من الطبيعي لأوروبة ، مع تناقص وجلها من الاسلام ، ان تفقد شيئاً من الشدة الأصلية لشعورها العدائي نحوه . واذا كان هذا الشعور العدائي قـــد اصبح أقل بروزاً وأقل نشاطاً ، فإن هذا لا يسمح لنا ان نقفز الى الاستنتاج بأن الغرب قد اقترب ضمناً من الاسلام ، ان هذا يدل على قلة اكتراثه به .

ان المدنية الغربية لم تبدل اتجاهها العقلي نحو الاسلام ، وانها اليوم شديدة المناهضة للفكرة الدينية في الحياة كما كانت دائماً من قبل. ولقد ذُكِرَ آنفاً انه ليس ثمت قرينة مقنعة تدل على ان هذا التبـــدل يمكن ان يتفق في المستقبل القريب . ان وجود بعض الدعـــاة المسلمين في الغرب ، وان اعتناق بعض الاوروبيين والاميركيين للاسلام (من غير ان يفهموا في اكثر الاحيان تعاليمه تماماً) ليس حجة على الاطلاق ، إذ انه في العهد الذي تنتصر

فيه المادية في كل مكان يبدو من الطبيعي أن بعض الأفراد هنا وهناك، ومن أولئك الذين لا يزالون يتوقون الى التجدد الروحي، يُصْغون بشوق إلى كل عقيدة بنيت على الفكرة الدينية . ومن هـــذه الناحية ، لا نجد الدعوة الاسلامية وحيدة في الغرب ، فإن هنالك شيعاً نصرانية صوفية لا يحصيها العد ، لها ميول نحو الاحياء الديني ، وهناك حركة إشراقية على شيء من القوة ، وهنالك هيا كل وارساليات بوذية ، وهنالك أتباع بوذيون في المدن الاوروبية المختلفة . فالحجة نفسها إذن ، التي يحتج بها الدعاة المسلمون ، تصلح أن يحتج بها الدعاة البوذيون ليقولوا ان اوروبة تقترب من البوذية . ففي كلتا الحالتين نجد هذا التأكيد مضحكاً . ثم ان دخول أفراد قلائل في البوذية أو في الاسلام لا يدل قطعاً على أن احدى العقيدتين قـــد بدأت تؤثر في الحياة الغربية على نطاق واسع . وقد يستطيع أحدنا أن يذهب إلى أبعد من هذا فيقول إنه ما من دعوة من هاتين الدعوتين استطاعت أن تثير إلا فضولاً ضئيلا يرجع في الأكثر إلى الروعة التي تستولي بها العقائد الاجنبية على عقول أناس ذوي ميول خيالية . ومن المؤكد أن ثمـة شواذ ، وان بعض المهتدين يمكن أن يكونوا من الساعين المخلصين نحو الحقيقة ، إلا أن ما يشذ ليس كافياً لأن يبدل وجه المدنية . أما من الناحية الثانية ، فإننا إذا قـيِّضَ لنا ان نوازن بين ذلك وبين عديد الاوروبيين الذين ينضمون كل يوم إلى صفوف المذاهب الاجتماعية المادية كالماركسية والفاشية ، استطعنا أن نعرف تماماً ميل المدنية

الغربية الحديثة .

ومن الممكن ، كما ذكرنا آنفاً ، ان الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي ، وان نشوب حرب عالمية جديدة لم يعرف الناس من قبلُ مثل اتساعها ولا مثل فظائعها بما ستقوم عليه من استخدام العلم ، كل ذلك قد يقود الغرور المادي عند أهل المدنية الغربية في طريق مخوف إلى المحال . وحينئذ سيرجع العقل الاوروبي مرة ثانية إلى السعي بذلة واخلاص وراء الحقيقة الروحية . وحينئذ يمكن أن تنجح الدعوة إلى الاسلام في الغرب ، ولكن مثل هذا التبدل لا يزال محجوباً وراء أفق المستقبل . **من أجل ذلك قد يقع المسلمون في تفاؤل خطر خداع فيما لو قالوا بأن النفوذ الاسلامي هو الآن في طريقه الى التغلب على روح اوروبة** . ان مثل هذا الاعتقاد ليس في الحقيقة سوى الاعتقاد القديم بظهور المهدي ، ولكن وراء قناع يتراءى فيه العقل . **ان هذا الاعتقاد خطر** لأنه طيب في النفس سهل عليها ، **ولأنه يحاول أن يخدعنا عن أن نرى الحقيقة ، تلك أننا لسنا من الثقافة على شيء ، بينما نرى النفوذ الغربي هو اليوم على أتم قوته في العالم الاسلامي . ثم اننا نحن نيام بينما ذلك النفوذ الغربي يزلزل المجتمع الاسلامي ويقوضه في كل مكان . فالرغبه اذن في انتشار الاسلام شيء ، وبناء الأماني الكاذبة على هذه الرغبة شيء آخر .**

اننا نحلم بنور الاسلام يَنتشر على البلاد المترامية ، بينما الشباب المسلم في جوارنا القريب يقعدون عن قضيتنا ويفرون عن آمالنا .

في التربية

●

ما دام المسلمون مصرين على النظر الى المدنية الغربية على انها القوة الوحيدة لاحياء الحضارة الإسلامية الراكدة ، فانهم يدخلون الضعف على ثقتهم بأنفسهم ، ويدعمون بطريقة غير مباشرة ذلك الزعم الغربي القائل بأن الاسلام « جهد ضائع » .

لقد بسطنا في الفصول الماضية بعض الأسباب المؤيدة للرأي القائل بأن الاسلام والمدنية الغربية ـ وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ـ لا يمكن ان يتفقا . فإذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة احداث المسلمين على اسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الاوروبية وعلى مقتضياتها ، خالصة من شوائب النفوذ المعادي للاسلام ؟

ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك. واننا اذا استثنينا بعض الاحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نيّر للغاية ان يتغلب على مادة التعليم ، **فان التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة ارادتهم في أن يعتقدوا او ان ينظروا الى انفسهم على انهم هم ممثلو الحضارة الالهية الخاصة التي جاء بها الاسلام . وليس ثمت من ريب في ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين**

« المتنورين » الذين نشأوا على اسس غربية. وهذا بكل تأكيد لا يعني ان الإسلام قد احتفظ بوحدته كدين عملي بين الطبقات غير المثقفة، ولكننا نجد هنا تلبية أبعد في مداها العاطفي لداعي الاسلام ـ على الطريقة الفطرية التي يدركها اصحاب هذه الطبقات اشد مما نجده عند « المتنورين » المصطبغين بالصبغـــة الغربية. اما تعليل هذا التباعد فليس لأن العلوم الغربية التي عُلفوا بها قد جاءت بدليل معقول على فساد حقيقة التعاليم الدينية، بل لأن ذلك الجو الفكري في المدنية الغربية الحديثة يناهض الدين الى حد من الشدة حتى انه ليجعل من نفسه عبئاً فادحاً على القوى الدينية الكامنة في ابناء الجيل الاسلامي الحاضر.

ان الايمان والالحاد هما في النادر فقط موضوع جدال فحسب، اذ قد يصار احياناً الى احدهما او الى الآخر من طريق الحدْس او من طريق النظر في الأمور كما يقال. على انهما في اغلب الاحيان ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية. تخيّل طفلاً قد رُبّي منذ ايامه الأولى تربية منظمة على سماع ألحان موسيقية تامة الأداء، إن هذا الطفل يشبّ واذنه متعودة تمييز الانغام والايقاع والانسجام.

واذا لم يُصبح هذا الطفل في مقتبل حياته قادراً على التأليف الموسيقي والأداء فإنه على الاقل يصبح قادراً على فهم أعقد انواع الموسيقى. ولكن طفلاً لم يُتح له في حياته الاولى ان يسمع شيئاً يشبه الموسيقى قد يتعذر عليه في مقتبل حياته ان يدرك بسائطها. وكذلك الحال في الجماعات الدينية. فكما ان هنالك افراداً ضنت عليهم الطبيعة باذن موسيقية أبداً، فإن هنالك أيضاً ـ على وجه

الامكان لا على وجه التحقيق ـ أفراداً في آذانهم وَقْرٌ عن سماع صوت الدين . إلا ان الذي يتعلق بالعديد الاكبر من البشر العاديين أن الايمان والجحود (عندهم) يفصل فيهما الجو الذي نشأوا فيه . من اجل ذلك قال الرسول : « ما من مولود إلا يُولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » . ان التعبير « ابواه » يمكن منطقياً ان يتناول البيئة العامة التي تتحكم في تطور الطفل. **وليس لأحد ان يتردد في الاعتراف** — والحالة الحاضرة على ماهي من الانحطاط — **بأن الجو الديني في كثير من بيوت المسلمين قد بلغ من التدني والانحلال الفكري حداً اخذ يثير في الاحداث الناشئين ، عوامل الاغراء الاولى لأن يُولّوا الدين ظهورهم . وهذا يمكن على التحقيق ان يكون كذلك ، أما في حـــال تعليم ناشئة المسلمين على أسس غربية فإن التأثير سيكون على الارجح موقفاً عدائياً من دينهم .**

ثم يبدو لنا هذا السؤال المهم : ماذا يجب ان يكون موقفنا من العلم الحديث؟ إن الاحتجاج على تعليم المسلمين تعليماً غربياً لا يعني أبداً أن الاسلام يعارض التعليم في ذاته . وليس لهذا الزعم الذي يزعمه خصومنا مستند لاهوتي ولا مستند ديني . ان القرآن الكريم مملوء بمثل هذه الآيات الكريمة : « لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ، لَعلَّكُم تَتَفَكرُونَ ، لَعلكُمْ تعلمُونَ ، وقُل ربِّ زدني علماً » . ولقد جاء في اوائل القرآن الكريم قوله تعالى: « وَعَلَّمَ آدَمَ الاسماءَ » [1] ثم أرانا في بعض الآيات الكريمة التي تلت ،

(١) سورة ٢ (البقرة) : ٣١ .

كيف ان الانسان بعد علم هذه « الأسماء » اصبح في بعض النواحي ارقى من الملائكة انفسهم. هذه « الاسماء » تعبير رمزي للمقدرة على تحديد المصطلحات وعلى قوة التفكير المنطقي الذي خص به البشر ، والذي يمكنهم به كما قال القرآن الكريم أن يكونوا خليفة الله على الأرض. ولكن لكي يستطيع الانسان ان يستفيد فائدة منظمة من تفكيره يجب عليه أن يتعلم ، ولذلك قال الرسول « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً الى الجنة » [1] وقال : « ان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » [2] .

وليس من الضروري ان نستشهد بآيات القرآن الكريم أو بأحاديث الرسول للدفاع عن موقف الاسلام من العلم. إن التاريخ يبرهن وراء كل امكان للريب أنه ما من دين ابداً حث على التقدم العلمي كما حث عليه الاسلام . وان التشجيع الذي لقيه العلم والبحث العلمي من الدين الاسلامي انتهى الى ذلك الانتاج الثقافي الباهر في ايام الأمويين والعباسيين وايام دولة العرب في الأندلس. وإن اوروبة لتعرف ذلك حق المعرفة لأن ثقافتها هي نفسها مدينة للاسلام بتلك النهضة على الاقل بعد قرون من الظلام الدامس. نحن لا نقول ذلك اعجاباً منا بتلك الذكريات المجيدة في زمن هجر العالم الاسلامي فيه تقاليده الخاصة وانقلب الى العماية والى الفقر الفكري ، إذ لا يحق لنا في بؤسنا الحاضر أن نفتخر

(١) و (٢) : مسند احمد بن حنبل ، وجامع الترمذي ، وسنن ابي داود وابن ماجه والدارمي .

بالامجاد الماضية .

ولكن يجب ان يتضح لدينا ان اهمال المسلمين، وليس النقص في التعاليم الاسلامية ، هو الذي سبّب الانحلال الحاضر .

إن الاسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم . انه يُقَدِّر الجهود الفكرية في الانسان الى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة. وما من دين ذهب أبعد من الاسلام في تأكيد غلبَة العقل وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة . وإذا نحن عملنا بأركان هذا الدين فإننا لا نستطيع أن نهجر التعليم الحديث في حياتنا. إننا نرغب في أن نتعلم وان نتقدم وأن نصبح من الناحية العلمية والاقتصادية أكفاء كالشعوب الغربية. **ولكنّ الشي الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون ان يتمنوه هو ان ينظروا بعيون غربية و يَرَوْا الآراء الغربية . أنهم لا يستطيعون أن يتمنوا – اذا أرادوا ان يظلوا مسلمين – ان يتبدّلوا بحضارة الاسلام الروحية تجارب مادية من اوروبة .**

المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية، انها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة . إلا أن وجهة النظر التي تُرى منها هذه الحقائق وتُعرض تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب . إن علم الحياة ، بما هو علم الحياة ، والعلم الطبيعي وعلم النبات ، بما هما كذلك ، ليست كلها مادية. ولا روحية في ما تقصد اليه . انها تتعلق بملاحظة الحقائق وبجمعها وتحديدها ثم استخراج القواعد المعقولة منها . أما النتائج الاستقرائية التي نستخرجها من هذه العلوم المتعلقة بالمظاهر العامة في الحياة ، أي فلسفة العلوم ، فإنها

لا تنبني على الحقائق والمشاهدة فقط ولكنها تتأثر إلى حد بعيد جداً بمزاجنا المتأصل فينا أو بموقفنا الحدْسي من الحياة ومشاكلها . ويقول الفيلسوف الالماني الكبير كَنْتَ : «قد يبدو من المستغرب – ولكنه أكيد على كل حال – ان عقلنا لا يستنبط نتائجه من الطبيعة ولكنه يعزوها اليها» . إن وجهة النظر الذاتية وحدها هي التي تؤثر هنا وتبدّل مظهر الاشياء . وكذلك العلوم ليست في ذاتها مادية ولا روحية ولكنها يمكن أن تنقلب إلى هذا المظهر أو ذاك حسب استعدادنا العقلي الخاص . إن الغرب ، بصرف النظر عن عقليته المثقفة الى درجة قصوى ، ذو استعداد مادي ، وهو من أجل ذلك مناهض للدين في مُدركاته وفي افتراضاته الأساسية . وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم . وليست دراسة العلوم الحديثة التجريبية هي المضرة بالحقيقة الثقافية في الاسلام ، وانما المضر هو روح المدنية الغربية التي يقترب المسلم بها إلى تلك العلوم .

ومن سوء حظنا الشديد إن ما اتصفنا به من قلة المبالاة ومن الإهمال ، فيما يتعلق بالبحوث العلمية ، جعلنا نعتمد أبداً على الوجهة الاوروبية في عرض العلم . ولو أننا كنا دائماً نتبع المبدأ الاسلامي الذي يوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة لما كنا اليوم نتطلع في طلب العلم إلى اوروبة كما يتطلع الذي يقتله الظمأ في الصحراء إلى السراب المتلألىء عند الأفق . ولكن بما أن المسلمين أهملوا زمناً طويلاً فإنهم غرقوا في الجهل وفي الفقر المادي بينما استطاعت اوروبة أن تخطو خطوة جبارة إلى الأمام . وسوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نتلافى هذا النقص . وحتى ذلك الحين فإننا سنظل مضطرين

بطبيعة الحال الى ان نتناول العلوم الحديثة عن طريق المجاري التعليمية في اوروبة. وهذا معناه اننا مقيدون بمادة العلم وبأسلوبه ليس إلا . وبكلمة اخرى يجب علينا ألا نتردد في درس العلوم الرياضية الطبيعية حسب الأسس الغربية، ولكن يجب ألا نتنازل للفلسفة الغربية عن اي دور من ادوار تنشئة احداث المسلمين. ولا ريب في ان بعضهم قد يستطيع ان يقول ان كثيراً من العلوم الرياضية الطبيعية في الوقت الحاضر كالطبيعيات الذرية مثلاً، قد بلغ حداً ابعد من البحث التجريبي الخالص، وعلى ذلك يجب ان نتعدى بدراستنا الى حقل الفلسفة . ثم انه من الصعب في كثير من الاحوال ان نجد حداً فاصلاً بين العلم التجريبي وبين الفلسفة النظرية. ذلك حق ولكن، من الناحية الثانية، تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلامية ان تثبت نفوذها عندها. وسيكون من واجب العلماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضاً، اذا وصلوا الى حدود البحث العلمي، إن يستخدموا نظرهم العقلي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية، وانهم من طريق اتجاههم العقلي الخاص — الاسلامي — قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المعقولات تختلف بعض الاختلاف من تلك التي وصل اليها العلماء الغربيون المحدثون

ولكن مهما كان ذلك الذي سينكشف عنه المستقبل فإن من الممكن دائماً ان ندرس العلوم وان ندرسها من غير ان نخضع خضوعا يسترقّنا للاتجاه العقلي في الغرب. انما يحتاج إليه العالم الاسلامي ضربة لازم ليس استشرافاً فلسفياً جديداً ولكن

تجهيز علمي فني عصري . ولو طلب اليّ ان اقترح شيئاً على لجنة تعليمية مثلى تسيّرها الاعتبارات الاسلامية وحدها لحثثت على ان تختار من جميع النتاج العقلي في الغرب العلومَ الطبيعية (مع الاحتفاظ بالموقف الآنف الذكر) والرياضيات ، فنعلمهـــا في المدارس الاسلامية. **اما تعليم الفلسفة الاوروبية والادب الاوروبي والتاريخ العام كما تُرى (هذه كلها) من وجهة نظر الغرب ، فيجب ان يفقد المرتبة الفضلى في برامج التعليم** . ان الموقف من الفلسفة الاوروبية يجب أن يكون واضحاً منذ البداية. أما الادب فيجب علينا بكل تأكيد ألا نحرّم دراسته ، وانما يجب أن تُرَدّ دراسته الى حدود قيمتها الحقيقية ، أي اللغوية ، فالطريقة التي تجري عليها معالجة الأدب الأوروبي وتدريسه في البلاد الاسلامية تدور - ونقول ذلك صراحة - مع الهوى . ان الاغراق الذي لا حد له في قدر قيمته يحمل العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال على ان تتشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير قبل أن يتاح لها أن تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية. وهكذا لا تكون الطريق معبّدة لحب ذلك الأدب حباً عذرياً فقط. ولكن لتساعد على التقليد العملي لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن أن تتفق مع روح الاسلام . ان الدور الحاضر الذي يقوم به الأدب الأوروبي في المدارس الاسلامية يجب أن نتبدّل به تدريساً عاقلاً بصيراً للأدب الاسلامي يتأثر منه الطالب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها ، وهكذا يشيع في نفسه أمل من جديد بحسن مستقبلها .

إن تعليم الادب الاوروبي على الشكل الذي يسود اليوم

الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة . ومثل هذا – ولكن الى حد أبعد – يصدق على التعليل الاوروبي للتاريخ العام ، اذ لا يزال الموقف القديم فيه :« رومانيون وبرابرة »يظهر بجلاء . ثم أن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً ، ذلك ان يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء الى هذا العالم . وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الادبي لسعي الاوروبيين الى السيطرة والى القوة المادية . لقد تعوّد الاوروبيون منذ أيام الرومانيين أن ينظروا إلى الفروق بين الشرق والغرب نظراً مبنياً على « قياس » اوروبي مزعوم . ثم أن براهينهم تقوم على الزعم أيضاً بأن تطور العالم لا يمكن أن يُنظر إليه إلا على أساس التجارب الثقافية الاوروبية . إن مثل هذا النظر القصير ينتج بالضرورة ظلاً مشوهاً ، وكلما امتد خط النظر عن الأمر الذي ينظر فيه الاوروبيون زادت الصعوبة عليهم في أن يدركوا المظهر الحقيقي والبناء التاريخي لذلك الأمر الذي يعالجونه .

من أجل هذا الاغترار كان تاريخ الاوروبيين الوصفي للعالم – حتى الآن على الأقل – ليس في الحقيقة إلا تاريخاً مفصلاً للغرب. ولم يُحسب لغير الشعوب الاوروبية حساب إلا إذا كان لوجودهم وتقدمهم تأثير مباشر في مصير اوروبة . ولكنك إذا رسمت للشعوب الاوروبية تاريخاً شديد التفصيل زاهي الألوان ولم تسمح إلا بنظرات خاطفة هنا وهناك تمر بها على الأقسام الباقية في العالم، فإن القارىء يميل إلى الاستسلام للتوهم بأن عظمة ما بلغ إليه

الاورروبيون في النواحي الاجتماعية والعقلية لا يمكن أن يقاس بها شيء مما حدث في العالم أجمع . **وهكذا يظهر تقريباً** ، وكما لو ان العالم قد اوجد من أجل اورروبة ومن اجل مدنيتها فقط ، **وكما لو أن سائر الشعوب والمدنيات قد خُلقت لتكون حواشي تناسب بهاء أورروبة وحدها . أما التأثير الوحيد الذي يمكن ان يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث عن غير الشعوب الاورروبية فانما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة وبماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل . وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم اللهم الا اذا كان مستقبلا مستسلماً للمثل العليا الغربية .**

وكيما نتمكن من مقاومة هذه المؤثرات السيئة يحتم على العقلاء من قادة الفكر الاسلامي أن يعملوا جهدهم لتعديل تعليم التاريخ في المؤسسات الاسلامية . تلك بلا ريب مهمة شاقة ، انها تحتاج إلى تمحيص أساسي للبحوث التاريخية قبل أن يصبح من المتيسر كتابة تاريخ جديد للعالم من وجهة النظر الاسلامية . ولكن إذا كانت هذه المهمة صعبة فإنها على كل حال ممكنة ، وهي فوق ذلك واجبة . وإلا فإن جيلنا الحديث سيستمر على التأثر بهذه التيارات الخفية التي تحمل اليه احتقار الاسلام ، وستكون النتيجة شعوراً بالنقص يتزايد يوماً بعد يوم . على ان هذا الشعور بالنقص يمكن بعد زمن ما أن يُقضى عليه إذا كان المسلمون مستعدين لأن يتألفوا المدنية الغربية جملة واحدة وان ينفوا الاسلام من حياتهم . ولكن هل هم مستعدون لأن يفعلوا ذلك ؟

نحن نعتقد ، والتطور الحديث في الغرب يثبت هذا الاعتقاد أيضاً ، بأن الأخلاق في الاسلام وخصوصاً في ادراكها للسلوك الاجتماعي والشخصي وللعدل والحرية ، انما هي اكثر سمواً واحسن كمالاً من المدنية الغربية .

لقد أبطل الاسلام العصبية العرقية « الحقد الجنسي » وشق الطريق الى الاخاء الانساني وإلى المساواة . ولكن المدنية الغربية لا تزال عاجزة عن أن تنظر إلى ما وراء ذلك الأفق الضيق من العداء الجنسي والقومي. ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية ولا حروب تلك الطبقات في مجتمعه، ولكن التاريخ الاوروبي كله ـ منذ ايام اليونان والرومان ـ مملوء بالكفاح بين الطبقات وبالعداء الاجتماعي. ثم يجب علينا ان نعيد القول مرة بعد اخرى بأن ثمة شيئاً واحداً يستطيع المسلمون ان يستفيدوا من تلقيه عن الغرب، ذلك هو العلوم الطبيعية والرياضية في اشكالها الخالصة والتجريبية على ان هذه الضرورة إلى طلب العلم من الخارج يجب أن تحمل المسلم على اعتبار المدنية الغربية أرقى من مدنيته، وإلا لا يكون حينئذ على بيّنة من قيمة الاسلام. إن تفوّق ثقافة ما أو مدنية ما على غيرها لا يمكن أن يقوم على معرفة مادية واسعة المدى (مع ان ذلك أمر مستحب) ولكنه يقوم على نشاطها الخلقي وعلى استطاعتها العظمى في ان تعلل وفي ان توفق بين نواحي الحياة الانسانية كلها ، وفي هـــذه الناحية يسمو الاسلام على كل ثقافة اخرى. فيجب علينا ان نتبع اوامر الاسلام حتى نستطيع ان نبلغ إلى اقصى ما يستطيع البشر أن يبلغوا اليه . ولكننا لا

نستطيع أن نقلد المدنية الغربية ، ولا يجب علينا أن نفعل ذلك ، إذا اردنا أن نحفظ للاسلام قيمته وأن نعمل على احيائها . إن الشر الذي يحدثه التأثير العقلي لتلك المدنية في المجموع الاسلامي لهو ابعد مدى من الفائدة المادية التي تستطيع تلك المدنية أن تمنّ علينا بها .

وإذا كان المسلمون قد اهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون أن ينتظروا اصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم من غير وازع ما . ان كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوازنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . إذا اردنا أن نحفظ حقيقة الاسلام على انها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية ، ذلك الجو الذي اصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا . وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية . ان تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً الى تقبّل الميل العقلي المصاقب لذلك .

في التقليد

●

ان تقليد المسلمين – سواء كان فردياً ام اجماعياً – لطريقة الحياةالغربية لهو بلا ريب اعظم الأخطار التي تستهدف لها الحضارة الإسلامية. ذلك المرض (ومن الصعب ان نسميه بغير هذا الاسم) يرجع الى ما قبل بضعة عقود ويتصل بقنوط المسلمين الذين رأوا القوة المادية والتقدم في الغرب، ثم وازنوا بينها وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الخاصة. ولقد كان من جهل المسلمين لتعاليم الاسلام – وذلك راجع في الأكثرية الى ضيق ناحية التفكير في أولئك الذين نسميهم الفقهاء [والى انصراف القادة والزعماء الى ملاذهم ومنازعاتهم الشخصية عن خدمة أمتهم وشعوبهم] – ان نشأت الفكرة القائلة بأن المسلمين لا يستطيعون ان يسايروا الرقي الذي نراه في سائر انحاء العالم ما لم يتقبلوا القواعد الاجتماعية والاقتصادية التي قبلها الغرب. لقد كان العالم الاسلامي زمناً ما راكداً: فقفز كثيرون من المسلمين الى الاستنتاج السطحي الخالص من ان النظام الاسلامي في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم، فيجب من اجل ذلك ان يحوّر حسب الأسس الغربية. هؤلاء الناس «المتنوّرون» لم يكلفوا انفسهم عناء البحث عن مدى التبِعَة التي

يتحملها الاسلام، على انه عقيدة، في تأخر المسلمين. ثم انه لم يتح لهم ان يروا موقف الاسلام الحقيقي، اي كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولكنهم اكتفوا من ذلك كله بأن رأوا ان تعاليم فقهائهم المعاصرين كانت سداً منيعاً في وجه الرقي ووجه التقدم المادي. ثم انهم بدلاً من ان يُوَلوا أبصارهم نحو المصادر الاصلية في الاسلام اعتبروا ضمناً ان الشريعة والفقه المتحجر في ايامنا هذه شيء واحد. وقد وجدوا ان الثاني ناقص من عدة وجوه ففقدوا بالتالي كل اهتمام عملي بالشريعة وأحالوها الى حقل التاريخ والمعرفة المدفونة في الكتب. ثم بدا لهم ان تقليد المدنية الغربية هو المخرج الوحيد من ورطة الانحلال الاسلامي. [اما التبعة في مـــا وصل اليه المسلمون من تأخر فتقع على عاتق العلماء والشباب المثقفين وعلى عاتق القادة الذين يتاجرون بالدين وبالبلاد، وليس لأحد من هؤلاء ان يتنصل من هذه التبعة، فكلهم مسؤولون عن تأخر المسلمين الاقتصادي والسياسي والعلمي في كل مكان] .

*

ان خير المؤلفات الحديثة من ناحية التفكير — ومنها الكتاب القيم «اسلاملاشمق» (اعتناق الاسلام) للأمير سعيد حليم باشا — والتي تقطع بأن الشريعة الاسلامية ليست حجر عثرة في سبيل التقدم الحديث كما ظن بعضهم اخيراً — قد تأخرت في الظهور فلم تستطع أن تَقِف التيار الذي طما على الكثيرين من المسلمين بإعجاب اعمى بالمدنية الغربية. ثم ان القوة على الشفاء في هذه المؤلفات قد بطلت بفعل سيل من الكتابات (وضعها اهلها فيما ظنوا

للدفاع عن العقائد الاسلامية) . هذه الكتابات ، وان لم تنكر التعاليم العملية في الاسلام بصراحة ، فانها حاولت أن تُري أن الشريعة يمكن أن تخضع بسهولة للآراء الاجتماعية والاقتصادية في المدنية الغربية . فتقليد المسلمين للمدنية الغربية كان على ما يظهر مبرراً عند بعضهم ، ولقد كانت الطريق معبدة أمـــام التخلي تدريجياً عن أبسط مبـادىء الاسلام الاجتماعية – ولكن دائماً تحت ستار « التقدم » الاسلامي – مما يَسمُ اليوم عدداً من أرقى الدول الاسلامية .

وليس ثمة من فائدة في أن نجادل ـ كما يفعل بعض «المتنورين» من المسلمين ـ ونزعم اننا لن نتعرض لعواقب روحية ما ، فيما لو عشنا حسب هذا السبيل أو حسب ذلك ، أو فيما لو لبسنا ثياباً اوروبية أو آسيوية ، أو فيما لو كنا محافظين في عاداتنا او غير محافظين. ليس في الاسلام قصر نظر ، ذلك مما لا شك فيه ، ولقد سبق لنا القول في الفصل الأول بان الاسلام منّ على الانسان بمجال واسع ، من وجوه الامكان ، ما دام لا يفعل ما يناقض الأوامر الدينية . ثم انه بصرف النظر عن ان كثيراً من الاشياء التي هي في جوهرها جزء من الكيـان الاجتماعي – كالحرية في المباشرة الجنسية مثلاً أو الربا الذي يعتبر أساساً للجهود الاقتصادية – تتنافى مع تعاليم الاسلام منافاة لا تحتمل الاخذ والرد ، فإن الميزة الأساسية للمدنية الغربية ، كما اظهرنا من قبل ، تمنع التوجيه الديني في الانسان منعاً باتاً. وان السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا انه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية

من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها . إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط ولكنها نشاط حي . وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبّل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا ، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معينـاً ولكن ببطء ومن غير أن نلحظ ذلك .

ولقد قدر الرسول هذا الاختيار حق قدره حينما قال: « من تشبّه بقوم فهو منهم[1] » . وهـذا الحديث المشهور ليس ايماءة أدبية فحسب بل هو تعبير إيجـابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها .

ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين « المهم » وبين « غير المهم » في نواحي الحياة الاجتماعية. وليس ثمة خطأ اكبر من أن نفترض ان اللباس مثلا شيء خارجي بحت وان لا خوف منه على «حياة الانسان» العقلية والروحية. انه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة . وزي هذا اللباس يتفق مع الادراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله . لقد تشكل هذا الزي ثم ما فتىء يبدل اشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله. فالزي الأوروبي اليوم مثلا يتفق تماماً مع الخصائص العقلية في اوروبة، وبلبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه « حياته » العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد . وبعمله هذا يكون (المسلم) قد تخلى عن

(١) مسند ابن حنبل وسنن ابي داود .

الامكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي وتقبّل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الأجنبية .

اذا حاكى المسلم اوروبة في لباسها وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يتكشّف عن انه يؤثر المدنية الاوروبية ، مهما كانت دعواه التي يعلنها . وانه لمن المستحيل عملياً ان تقلد مدنية اجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير إعجاب بروحها ، وانه لمن المستحيل أن تُعجَبَ بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني — وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً .

ان الميل إلى تقليد التمدين الاجنبي نتيجةُ الشعور بالنقص . هذا ، ولا شيءسواه ، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية . انهم يفاضلون بين قوتها ومقدرتها الفنية ومظهرها البراق وبين البؤس المحزن الذي ألمّ بالعالم الاسلامي ، ثم يأخذون في الاعتقاد بأنه ليس في أيامنا هذه من سبيل إلا سبيل الغرب . وانك لترى لوم الاسلام على تقصيرنا نحن زياً شائعاً بيننا اليوم . وأما في أفضل الأحوال فإن اولئك الذين نسميهم عقلاء من بيننا يتخذون موقفاً اعتذارياً ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الآخرين بأن الاسلام يمكنه بسهولة أن يتشرب روح المدنية الغربية .

وكيما يستطيع المسلم إحياء الاسلام يجب أن يعيش عالي الرأس ، يجب عليه أن يتحقق أنه متميز وانه مختلف عن سائر الناس ، وان يكون عظيم الفخر لأنه كذلك . ويجب عليه أن يكدّ ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالبة وان يعلن هــــذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من ان يعتذر عنه بينما هو يحاول

أن يذوب في مناطق ثقافية أخَر . على ان هذا لا يعني ان المسلمين يجب أن يصموا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج ، فان أحدنا يستطيع دائماً أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية اجنبية ما من غير أن يهدم مدنيته ضرورةً . والنهضة الاوروبية أحسن مثل في هذا الباب. فقد رأينا كيف أن اوروبة تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط ، ولم تضحّ استقلالها العقلي أو البديعي على الإطلاق . لقد اتخذت أوروبة من المؤثرات العربية سماداً لتربتها كما فعل العرب حينما استغلوا المؤثرات الهيلانية(*) في أيامهم . ولقد كانت النتيجة في كلتا الحالتين نمواً جديداً عظيماً للمدنية الاصلية ، مملوءاً بالثقة بالنفس وبالاعجاب . وما من مدنية تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الوجود بعد أن تخسر اعجابها بنفسها وصلتها بماضيها.

ولكن العالم الاسلامي، وبه ميل متزايد الى محاكاة اوروبة والى اقتباس الآراء والمثل العليا الغربية ، يقطع بالتدريج تلك الصلات التي تربطه بماضيه . وهو من أجل ذلك لا يفقد شيئاً من مركزه الثقافي فحسب، بل من مركزه الروحي أيضاً. إنه يشبه الشجرة التي كانت قوية حينما كانت بعيدة الجذور في الارض . ولكن ميول المدنية الغربية أزالت التراب عن جذورها فأخذت هي تنحلّ ببطء لفقد الغذاء فسقطت أوراقها وذبلت غصونها . ولكن عند أسفل جذعها يبرز الخطر الذي يهددها بالسقوط

* اليونانية المتأخرة .

إلى الارض .

*

فالمدنية الغربية إذن لا يمكن أن تكون الوسيلة الصحيحة لإيقاظ العالم الاسلامي من سباته العقلي والاجتماعي ، ذلك السبات الذي أدى إلى انحلال مظاهر الدين حتى اصبحت عادة مجردة لا حياة لها ولا باعث اخلاقياً فيها . فأين يجب على المسلمين إذن أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي الذي هم اليوم في أشد الحاجة اليه ؟ ان الجواب على ذلك سهل ٌ سهولة السؤال عنه ، بل انه متضمن في السؤال نفسه . ان الاسلام — كما سبقت الاشارة إلى ذلك مراراً — ليس «اعتقاداً بالجنان» فقط ولكنه فوق ذلك منهاج ظاهر الحدود تمام الظهور للحياة الفردية والاجتماعية . ويمكن ان يُهدّم الاسلام باتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف منه اختلافاً جوهرياً في اسسها الاخلاقية ، وكذلك يمكن أن ينتعش حالما يُرجع به الى الحقيقة الخاصة به ، وتُنسب اليه قيمة ٌ هي العنصر الذي يقرر ثم يؤلف كياننا الفردي والاجتماعي في جميع نواحيه .

*

وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الاسلام أن يظل شكلاً أجوف . لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالا فيجب ان ينهض او ان يموت . ان المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل الى مفترق طرق : انه يستطيع ان يظل واقفا مكانه ، ولكن هذا يعني انه سيموت جوعاً ، وهو يستطيع

ان يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان : « نحو المدنية الغربية » ولكنه حينئذ يجب ان يودع ماضيه الى الابد، او انه يستطيع ان يختار الطريق التي كتب عليها : « الى حقيقة الاسلام » . ان هذه الطريق وحدها هي التي تستميل اولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي .

الحديث والسنة

●

لقد عُرضت اقتراحات كثيرة للإصلاح في اثناء العقود الاخيرة، وحاول كثيرون من الاطباء الروحيين تركيب علاج ناجع لجسم الاسلام المريض، ولكن جهود هؤلاء كلهم كانت الى الآن عبثاً. ذلك لأن جميع اولئك الأطباء الحذاق ـ او على الأقل اصحاب الكلمة المسموعة منهم ـ نسوا ان يضعوا مع هذا العلاج ومع الأدوية المعيدة للصحة ومع انواع الاكسير الغذاء الطبيعي الذي تقوم عليه النقاهة الاولى للمريض. هذا الغذاء الوحيـــد الذي يستطيع جسم الاسلام في حالتي صحته وسقامه ان يُقبل عليه، والذي تتمكن أجهزته من امتصاصه بكل تأكيد هو سنّة محمد.

لقد كانت السنة مفتاحاً لفهم النهضة الاسلامية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً، فلماذا لا تكون مفتاحاً لفهم انحلالنا الحاضر؟ ان العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الاسلام وعلى تقدمه، وان ترك السنّة هو انحلال الاسلام ... لقد كانت السنّة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الاسلام، وانك اذا أزلت هيكل بناء ما، أفيدهشك ان يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟

إن الحقيقة البسيطة التي أجمع على القول بها جميع العلماء في جميع أعصر التاريخ الاسلامي لا تلقى، كما نعلم نحن جيداً، قبولاً اليوم لأسباب تتعلق بمؤثرات المدنية الغربية ، تلك المؤثرات التي تزداد نمواً يوماً بعد يوم . إلا ان تلك هي الحقيقة الوحيدة التي يمكنها أن تنقذنا من الفوضى والعار اللذين سبّبهما انحلالنا الحاضر.

إننا نستعمل هنا كلمة «السنّة» بأوسع معانيها، على انها المثال الذي أقامه لنا الرسول من اعماله وأقواله . إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حياً وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم ، ولا يمكننا ان ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلّغ الوحي.

*

لقد رأينا من أهم مآتي الاسلام تلك المآتي التي تميز من سائر النظم المطلقة ـ التوفيق التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الانسانية . هذا سبب من الاسباب التي عملت على ظفر الاسلام في إبان قوته اينما حل . لقد أتى الأسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة . تلك الخاصة الظاهرة في الاسلام تجلو الحقيقة الدالة على ان نبينا ، الذي كان في رسالته الدليل الهادي للانسانية ، كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي [وعلى هذا حديث رسول الله ﷺ : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً]. وإنه لمن الجهل بالاسلام ان يحاول أحدنا أن يوفق بين أوامر للرسول تتعلق بأمور تعبدية روحية خالصة وبين غيرها من التي تتصل بقضايا المجتمع وقضايا

حياتنا اليومية. وإن القول بأننا مجبرون على اتباع الأوامر المتعلقة بالنوع الأول ولكننا لسنا مجبرين على ان نتبع الاوامر المتعلقة بالنوع الثاني إنما هو نظر سطحي ، وهو فوق ذلك مناهض في روحه للإسلام مثل الفكرة القائلة بأن بعض أوامر القرآن الكريم قد قُصد بها العرب الذين عاصروا نزول الوحي لا النخبة من الاكياس (الجنتلمان) الذين يعيشون في القرن العشرين . ان هذا بخس شديد لقدر النور النبوي الذي قام به المصطفى ﷺ

وكما أن حياة المسلم يجب أن تقوم على التعاون التام المطلق بين ذاته الروحية وذاته الجسدية ، فإن هداية نبينا يجب أن تضمّ الحياة على انها وحدة مركبة ، أي على انها مجموع أعمق المظاهر الخلقية والعملية والشخصية والاجتماعية . وهذا هو أعمق معاني السنة .

ولقد قال القرآن الكريم : « وما آتاكُمُ الرّسولُ فخُذُوهُ وما نهاكُمْ عَنْهُ فانتهُوا[١] » ، وقال الرسول « تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة[٢] » . وهنا يجب ان نذكر أن استعمال الرقم «سبعين» في اللغة العربية يدل غالباً على «الكثرة» وليس من الضروري ان يدلّ على عدد حسابي ايجابي . والظاهر من قول الرسول انه قصد ان يقول ان الفِرَقَ والشِيَع بين المسلمين ستكون كثيرة ، حتى انها لتكون اكثر من تلك التي بين النصارى واليهود . ثم ان الرسول اضاف الى ما تقدم قوله :

(١) القرآن الكريم ، سورة ٥٩ (الحشر) : ٧

(٢) سنن ابي داود وجامع الترمذي وسنن الدارمي ومسند ابن حنبل .

« كلهم في النار إلا واحدة » وحينما سأله الصحابة رضوان الله عليهم عن الفرقة المهتدية الناجية قال: « ما أنا عليه وأصحابي». وهذا يعني أن أولئك الذين اتخذوا الرسول واصحابه دليلاً يهتدون به في حياتهم هم الذين يسلكون السبيل الروحي للفوز . ثم إن هنالك آيات في القرآن تجلو هذه الناحية التي لا تترك مجالاً ما للاختلاف في التأويل : «فلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفُسِهِمْ حَرَجاً مما قَضيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسليماً [١] » وكذلك: « قلْ إن كُنْتُمْ تُحِبّون اللهَ فاتّبِعوني يُحبِبكُمُ اللهُ ويَغفِر لكُمْ ذنوبكم ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ . قُلْ أطيعُوا اللهَ والرسولَ فان تولوا فان اللهَ لا يُحب الكافرين [٢]».

فسنة الرسول إذن تالية للقرآن ، وهي المصدر الثاني للشرع الاسلامي وللسلوك الشخصي والاجتماعي. وفي الحقيقة يجب علينا أن نعتبر ان السنة انما هي التفسير الوحيد لتعاليم القرآن الكريم والوسيلة الوحيدة لاجتناب الخلاف في تأويل تلك التعاليم وتطبيقها في الحياة العملية . ان في القرآن آيات تنطوي على معنى رمزي ، ويمكن ان تُفهم على اوجه مختلفات اذا لم يكن لدينا طريقة صحيحة للتأويل . ان الروح السائد في القرآن الكريم هو أن يكون موثوقاً متفق الاجزاء ، على أن استنباط الاتجاه العملي الذي يجب أن نتخذه نحن ليس هيناً في جميع الاحوال : وما دمنا نعتقد ان

(١) سورة ٤ (النساء) : ٦٤ .
(٢) سورة ٣ (آل عمران) : ٣١ - ٣٢ .

القرآن الكريم كلام الله تماماً في مبناه ومعناه ، فالنتيجة المنطقية لذلك أنه لم يُقصد به قط أن يكون مستقلاً عن هداية الرسول الشخصية على ماهي مبسوطة في السنة. واننا سنحاول في الفصل التالي تبيان الأسباب الغائيّة لاتصال القرآن الكريم ـ في جميع العصور ـ بشخصية الرسول الهادية الملهمة. ثم ان تفكيرنا يقودنا حتماً الى أنه ليس ثمة «حكَم» فيما يتعلق بالتأويل العملي لتعاليم القرآن الكريم أفضلُ من الذي اوحيت اليه هذه التعاليم هدى للعالمين. ان التعبير الذي يتردد على مسامعنا اليوم كثيراً : «لنرجعْ إلى القرآن الكريم ولكن يجب أن لا نجعل من أنفسنا اتباعاً مستعبدين للسنة» ينكشف بكل بساطة عن جهل للاسلام . إن الذين يقولون هـذا القول يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصراً ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب .

وهنا تعرض المشكلة الكبيرة التي تتعلق بصحة المصادر التي تكشف لنا عن حياة الرسول وتذكر اقواله . هذه المصادر هي الحديث ، وهو ما روي من أقوال الرسول وأعماله التي ذكرها أصحابه ونقلوها ثم جمعت بعد التمحيص في القرون الأولى التي تلت الهجرة. هنالك كثيرون من المسلمين العصريين الذين يعلنون بأنهم على استعداد للعمل بالسنة ، ولكنهم يظنون انهم لا يستطيعون الاعتماد على مجموع الحديث الذي تقوم عليه السنة . **ولقد اصبح من قبيل الزي في ايامنا هذه ان ينكر المرء مبدئياً صحة الحديث ، ثم هو من اجل ذلك ينكر نظام السنة كله .**

هل هنالك أساس علمي لهذا الاتجاه؟ أم هل هنالك مبرر علمي

لرفض الحديث على انه مصدر يستند اليه الشرع الاسلامي ؟

إننا نظن أن خصوم الرأي الصحيح ـ مذهب أهل السنة فيما يتعلق بالحديث ـ لا يمكن أن يأتوا بأدلة مقنعة فعلاً تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالأحاديث المنسوبة إلى الرسول. ولكن ليس هذا موضوعنا. إنه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدّي الحديث على انه نظام ما، فان اولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفيّ الخالص بنتائج من البحث العلمي. وانه من الصعب أن يفعل أحد ذلك، لان الجامعين لكتب الحدث الاولى ، وخصوصاً الامامين البخاريّ ومسلماً، قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد كثيراً من ذلك الذي يلجأ اليه المؤرخون الاوروبيون عادة عند النظر في مصادر التاريخ القديم .

اننا نتخطّى نطاق هذا الكتاب اذا نحن أسهبنا في الكلام، على وجه التفصيل، في الاسلوب الدقيق الذي كان المحدّثون ـ علماء الحديث ـ الاولون يستعملونه للتثبت من صحة كل حديث، ويكفي ـ من أجل ما نحن هنا بصدده ـ أن نقول إنه نشأ من ذلك علم تام الفروع غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها. ولقد استطاع هذا العلم في الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الاشخاص الذين ذُكروا على انهم رواة أو محدثون ان تراجم هؤلاء الرجال والنساء قد خضعت لبحث دقيق من كل ناحية ، ولم يُعَدّ منهم في الثقات الا اولئك الذين كانت حياتهم وطريقة روايتهم للحديث تتفق تماماً مع

القواعد التي وضعها المحدثون ، تلك القواعد التي تُعتبر على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة . فإذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فإن عليه هو وحده أن يُثبت ذلك . وليس ثمة من مبرر مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدرٍ تاريخي ما ، ما لم يكن باستطاعته أن يبرهن على ان هذا المصدر منقوص . فاذا لم تقم حجة معقولة ، أي علمية ، على الشك في المصدر نفسه أو في أحد رواته المتأخرين ، وإذا لم يكن ثمة من الناحية الثانية خبر آخر يناقضه ، كان حتماً علينا حينئذ أن نقبل الحديث على انه صحيح .

لنفرض مثلاً ان رجلاً ما كان يتكلم عن حروب محمود الغزنوي في الهند ، ثم نهضت أنت وقلت له : « لا أعتقد ان محموداً الغزنوي كان يوماً ما في الهند وانما تذكره خرافة لا اساس تاريخياً لها » . فماذا يمكن أن يحدث في مثل هذه الحال؟ سينهض في الحال قوم متضلعون من التاريخ ويحاولون اصلاح خطأك فيستشهدون بكتب الاخبار والتاريخ المبنية على أخبار رواها معاصرو ذاك السلطان المشهور ويعتبرونها هم أدلة قاطعاً تثبت أن محموداً ذهب إلى الهند . في تلك الحال يجب عليك أن تذعن للبرهان والا عدُّوك فريسة للأوهام تنكر الحقائق التاريخية الثابتة من غير سبب واضح . فاذا كان ذلك كذلك فعلى الانسان أن يتساءل عما يمنع النقاد العصريين من أن يشملوا مشكلة الحديث أيضاً بهذه النظرية المنطقية الواسعة .

إن السبب الاول لوجود حديث مكذوب إنما هو كذبة متعمدة ترجع إلى مصدره الاول اي إلى الصحابي او إلى أحد الرواة

المتأخرين. أما فيما يتعلق بالصحابي فيمكن صرف التهمة عنه ابتداءً. وانما لن نتكلف سوى شيء من النظر الثاقب في الناحية النفسانية لنردّ مثل هذه المزاعم إلى نطاق الوهم الخالص. ان الاثر العظيم الذي تركته شخصية الرسول في اولئك الرجال إنما هي حقيقةٌ من أبرز حقائق التاريخ الانساني، ثم هي فوق ذلك ثابتة بالوثائق التاريخية. فهل يمر في خيالنا ان اولئك الرجال الذين كانوا على استعداد لأن يضحوا أنفسهم وما يملكون في سبيل رسول الله كانوا يتلاعبون بكلماته؟ لقد قال الرسول: « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[1]. لقد عرف الصحابة ذلك، ولقد اعتقدوا ضمناً بكلام الرسول الذي كانوا ينظرون اليه على أنه ينطق عن الله. أفمن المحتمل، من وجهة النظر النفسانية اذن أن يُغفلوا هذا النهي الصريح نفسه؟

ان أول سؤال يواجه القاضي عند سماع الدعوى في محاكم الجنايات هو: « من ذا الذي يمكن ان يكون قد استفاد من ارتكاب الجريمة؟ » ان هذا المبدأ القضائي يمكن أن ينطبق على مشكلة الحديث. ثم اننا إذا استثنينا بعض الأحاديث التي تتعلق مباشرة بالأحوال الشخصية لدى بعض الأفراد أو الجماعات كالأحاديث التي هي بلا شك موضوعة والتي اتفق أكثر المحدثين على رفضها من مثل ادعاء الاحزاب المختلفة للخلافة في القرن الاول بعد وفاة الرسول، لم يكن ثمت من سبب يرجع بالفائدة على أحد ما

---

(١) صحيح البخاري، سنن أبي داود، جامع الترمذي، سنن ابن ماجة سنن الدارمي، مسند احمد بن حنبل.

فيما لو وضع الأحاديث على رسول الله . ولقـد كان من الادراك الصحيح لإمكان وضع مثل هـذه الاحاديث لغايات شخصية ان أعظم رجال الحديث الإمامين البخاري ومسلماً حذفا من صحيحهما كل حديث يتعلق بسياسة الأحزاب. وأما ما بقي فقد كان ، على وجه التقريب ، وراء كل شك ، خالياً من كل فائدة شخصية لكل فرد. ثم ان هنالك احتجاجاً آخر يمكن أن يتحدى الناس على اساسه صحة الحديث. فقد يقال أن الصحابي الذي سمع الحديث من شفتي الرسول أو احد الرواة المتأخرين قد أخطأ ـ مع انه في اعتقاد نفسه صادق ـ خطأ حمله عليه سوء فهم أو نسيان أو سبب آخر من الاسباب النفسانية. ولكن الإيقان الداخلي أي النفساني يشهد على بطلان إمكان وقوع مثل هذا الخطأ إلى حد كبير ، وعلى الأقل من الصحابة ، ذلك لأن الذين عاشوا في صحبة الرسول رأوا جميعهم في أقوال الرسول وأعماله أعظم الأهمية ، لا لأن شخصية الرسول أثرت فيهم فخلبت ألبابهم فقط بل لأنهم كانوا أيضاً على اعتقاد جازم بأن ذلك كان أمراً من الله تعالى لتنظيم حياتهم حتى في أدقّ تفاصيلها ، كل ذلك اهتداءً بالرسول واقتداء به . من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يتناولوا الأحاديث بلا اكتراث ، بل جربوا أن يتعلموها وأن يحفظوها عن ظهر قلب ولو أدى ذلك إلى شيء من الازعاج الشخصي لهم. ومما يروى ان الصحابة الذين كانوا يلازمون الرسول انقسموا رجلين رجلين : فكان أحد الرجلين يلازم الرسول مرة بينما يسعى الآخر وراء رزقه أو يقوم على اموره ، ثم يلازم الرجل الآخر الرسول ليتمكن الأول من السعي وراء رزقه . وكان كلما سمع احدهما شيئاً عن الرسول

أو رأى عملاً من أعماله نقله إلى صاحبه . ولقد كانوا جميعهم شديدي الحرص على ألا يفوتهم شيء من أقواله أو أفعاله . ومن المرجح انهم في مثل هذه المواقف قد أهملوا لفظ الحديث كما قاله الرسول تماماً . ولكن إذا كان مئات الصحابة قد حفظوا جميع القرآن الكريم غيباً بلفظه وبما فيه من فروق ضئيلة في الرسم (التهجئة) فلا ريب في انه كان ممكناً لهم وللتابعين من بعدهم أن يحفظوا أقوال الرسول متفرقة كما حفظوا القرآن سواء بسواء، ولكن من غير ان يزيدوا على الأحاديث أو أن ينقصوا منها شيئاً. ان المحدّثين يرون ان الحديث الصحيح ما رُوي واحداً في معناه ولكن بأسانيد مختلفة مستقلة. ومع هذا كله فلم يَدُرْ في خلد مسلم ان احاديث الرسول تبلغ في المقام أو في الصحة التي لا مجال فيها للجدال مبلغ القرآن الكريم ، ولم يخل زمن ما من دراسة للحديث ونقده . ثم ان الأحاديث الموضوعة (المكذوبة) لم تخفَ قط على المحدثين كما يزعم بعض النقاد الاوروبيين عن سذاجة ، بل إننا نرى عكس ذلك الزعم . ان علم الحديث بدأ لما مسّت الضرورة إلى تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع ، وان صحيحيْ الامامين البخاري ومسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز. فوجود الأحاديث الموضوعة إذن لا يمكن أن يكون دليلا على ضعف نظام الحديث في مجموعه ، كما أنه لا ينتظر من قصص الف ليلة وليلة أن تبرهن على شيء يتعلق بالإثبات أو بالطعن في صحة الأخبار التاريخية المروية على عصر تلك القصص .

لم يستطع ناقد ما حتى أيامنا هذه أن يبرهن بطريقة منظمة

ذات قواعد على أن مجموع الأحاديث تعتبر صحيحة حسب القواعد التي وضعها أئمة المحدّثين هي غير صحيحة . إن رفض الأحاديث الصحيحة ، جملة واحدة أو أقساماً ، ليس حتى اليوم – كما سبق لنا القول – إلا قضية ذوق ، قضية قصرت عن أن تجعل من نفسها بحثاً علمياً خالصاً من الأهواء . وان السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبّعه إلى مصدره . ان السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح ، كما يظهر في سنة النبي ، في نظام واحد . ولكي يستطيع نَقَدَة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم حينئذ ان يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من « التفكير » السطحي – أي حسب ميول كل واحد منهم وحسب طريقة تفكيره هو ، ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام – على انه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي – تنتهي بهذه الطريقة الى التهافت والاندثار .

وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الاسلامية نجد سبباً جديداً يضاف الى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم « متنوري المسلمين » من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي وان نتّبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد . ثم ان الجيل المسلم

الحاضر مستعد لأن يُكبِر كل شيء غربي وأن يتعبد لكل مدنية اجنبية لأنها أجنبية ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية . هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي وجعلت جميع نظام السنّة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا . ان السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى أن أولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها . وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقة لروح المدنية الغربية ، أكثر سهولة .

روح السنة

●

ان تبرير السنّة من ناحيتها الباطنية الروحية انما هو على درجة واحدة من الأهمية تقريباً مع تبريرها شكلياً او ، كما يقال ، شرعياً – وذلك فيما يتعلق بتقرير استنادها التاريخي الى الحديث . لماذا ننظر الى العمل بالسنة على انه امر لا بد منه اذا اردنا ان نحيا حياة تتفق في معناها مع الاسلام؟ أليس ثمة سبيل آخر الى حقيقة الاسلام سوى ذلك النظام المتسع من الأعمال والعادات والاوامر والنواهي ، مما نجد بعضه تافهاً ، وان كان جميعه مستقى من حياة الرسول ؟ مما لا شك فيه ان الرسول كان اعظم الرجال ، ولكن أليس الاجبار على تقليد حياته في جميع تفاصيلها الشكلية افتئاتاً على الحرية الفردية في الشخصية الانسانية؟ هذا اعتراض قديم يعترض به النقاد من غير الموالين للاسلام عادة ، اذ يقولون ان التشديد في اتباع السنة كان سبباً من الاسباب الاساسية التي قادت الى انحلال العالم الاسلامي . وقد ظنوا ان مثل هذا الاتجاه سيكون في النهاية اعتداءً على حرية النشاط الانساني وعلى التطور الطبيعي للمجتمع . إن من أعظم الأهمية لمستقبل الاسلام ان نعلم – سواء أكان باستطاعتنا ان نجيب على هذا الاعتراض ام لم يكن – ان موقفنا

من السنة هو الذي سيقرر موقفنا من الاسلام .

اننا فخورون بحق بأن الاسلام كدين لا يقوم على عقيدة تصوفية ولكنه يتقبل دائماً البحث الانتقادي العاقل . فنحن من اجل ذلك على حق اذا كنا لا نكتفي بأن نعلم فقط ان العمل بالسنة واجب علينا ، بل اذا تطلبنا ان نفهم السبب الملازم لهذا الوجوب.

بهذا نكون قد وصلنا الى مشكلة تستحق اعتباراً خاصاً. ان الاسلام يحمل الانسان على توحيد جميع نواحي الحياة. وبما ان هذا الدين واسطة الى هذه الغاية فإنه يمثل في نفسه مجموع مدركات لا يجوز ان يضاف اليها شيء ولا ان ينقص منها شيء . كما انه ليس في الاسلام مجال للخِيَرة ، فإذا قبلنا تعاليمه كما بسطها القرآن الكريم فعلاً او كما أوردها الرسول فيجب علينا ان نقبلها تامة وإلا خسرت قيمتها. ومن سوء الفهم الاساسي للاسلام ان نظنه ، وهو دين العقل يُخضع تعاليمه للاختيار الشخصي ـ وتلك دعوى نشأت من الخطأ الشائع في فهم الفلسفة العقلية. هنالك شقة واسعة ـ على ما اعترفت به ايضاً الفلسفة في جميع الأعصر ـ بين العقل وبين الفلسفة العقلية كما يفهمها عادة بعضهم اليوم . ان لعمل العقل فيما يتعلق بالتعاليم الدينية صفة الوازع ، وواجبه ان يرى انه لا يُفرَض على العقل إلا ما يحتمله العقل بسهولة ومن غير لجوء الى الخدع الفلسفية. اما فيما يتعلق بالدين الاسلامي فإن العقل البعيد عن الهوى قد وثق به مرة بعد مرة ثقة مطلقة من كل قيد. ولكن هذا لا يعني ان كل انسان اتصل بالاسلام وجب عليه ضرورة ان يقبل تعاليمه كأنها حتم عليه ، تلك قضية مزاج وهي في آخر الأمر ـ من

حيث الترتيب لا من حيث الاهمية ــ قضية اشراق روحي أو «هداية» كما يدعوها القرآن الكريم . وليس من شخص بعيد عن الهوى يجادل في الاسلام ليزعم ان فيه شيئاً مخالفاً للعقل. الا انه مما لا شك فيه ان ثمت اشياء وراء حدود العقل الانساني، ولكنها لا تخالفه .

إلى هنا كان عمل العقل في الامور الدينية ــ كما رأينا ــ عملاً من الرقابة السلبية ، انه آلة تسجيل تقول « نعم » او « لا » كما تقتضي الحال. ولكن ليس الأمر كذلك في ما يسمونه بالفلسفة العقلية ، انها لا تكتفي بالتسجيل والمراقبة بل تقفز إلى ميدان التفكير السلبي . انها ليست متفهمة ولا مستقلة كالعقل المطلق ولكنها ذاتية مزاجية إلى الحد الاقصى. ان العقل يعرف حدوده الخاصة به ولكن الفلسفة العقلية تتخطى المعقول في ادعائها حصر العالم بجميع خفاياه في نطاقها الفردي الضيق. وهي لا تكاد تسلّم في الأمور الدينية بأنه من الممكن وجود أشياء لا يطيقها الفهم الانساني في زمن مـــا أو في كل زمن ، مع انها في الوقت نفسه تخالف المنطق إلى حد انها تسلّم بهذا الإمكان للعلم .

ان قدْرَ تلك الفلسفة العقلية غير المبدعة فوق قدرها هو احد الأسباب التي تحمل كثيرين من المسلمين العصريين على أن يأبوا اسلام أنفسهم إلى هداية الرسول. وإننا اليوم لا نحتاج إلى فيلسوف مثل « كَـنْـتْ »[1] ليبرهن لنا على ان الفهم الانساني محدود تماماً بما ينطوي عليه من وجوه الامكان. إن عقلنا لا يستطيع، بما رُكب

(١) عمانوئيل كنت اعظم الفلاسفة العقليين في العصر الحديث وأحد كبار الفلاسفة في جميع عصورها. وقد اشتهر بكتابه «نقد العقل المحض» (ت ١٨٠٤ م).

في طبيعته ، ان يحيط بفكرة « الكلية » . اننا نستطيع أن نفهم من كل شيء تفاصيله فقط. اننا لا ندري ما اللانهاية ولا ما الأزل حتى اننا لا نعلم ما الحياة . أما في قضايا الدين المبنية على اسس مطلقة فاننا نحتاج ضرورة إلى هادٍ يتصف عقله بشيء فوق ما يتصف به التفكير المادي وفوق ما تتصف به الفلسفة العقلية الذاتية العامة فينا : إننا نحتاج إلى من أشرق عليه نور الله – أو بكلمة واحدة إلى نبي . فإذا كنا نعتقد ان القرآن الكريم كلام الله وان محمداً رسول الله، فإننا نصبح حينئذ مُلزَمين أدبياً وعقلياً بأن نتبع هدى الرسول اتباعاً أعمى . على ان التعبير «أعمى» لا يعني اننا نحب أن نطرح جميع قوى العقل ، بل بالعكس يجب علينا أن نستغل تلك القوى في أحسن وجوه مقدرتنا واستعدادنا: يجب علينا أن نجرب الكشف عن المعنى اللازم لتلك الأوامر التي جاء بها النبي. على ان الواجب يحملنا في كل حال أن نطيع تلك الأوامر سواء اكنا قادرين على فهمها أم لم نكن . وأحب أن أضرب هنا مثلا جندياً أمره قائده أن يحتل مركزاً حربياً ما إن الجندي الصحيح يسمع هذا الأمر وينفذه في الحال . فاذا استطاع الجندي في هذه الاثناء أن يفهم بنفسه الغاية الحربية القصوى التي تخيلها قائده ، كان ذلك من حسن حظه وحسن حظ الجيش ، لكن إذا لم ينكشف له فليس من شأنه أن يترك تنفيذ ذلك الأمر أو أن يؤجله . ونحن المسلمين نعتقد ان نبينا أحسن قائد عرفه البشر ، ونحن نعتقد بطبيعة الحال انه كان يعرف امر الدين بناحيتيه الروحية والاجتماعية اكثر مما استطعنا نحن ان نعرفه. فإذا امرنا

بشيء أو نهانا عنه فلأنه كان أمراً « مقدراً » يرى هو أنه لا غنى عنه لصلاح الناس الروحي والاجتماعي . وقد يكون هذا الأمر ظاهراً بوضوح، وقد يخفى كثيراً أو قليلاً عن عين الرجل العادي القليل المران . ثم اننا أحياناً نستطيع أن نفهم أبعد الأهداف في أوامر الرسول، وأحياناً لا نفهم إلا القصد السطحي منها . ومهما كان من الأمر فالواجب علينا أن نعمل بأوامر الرسول على أن تكون صحتها قد ثبتت من طرق معقولة . ومما لا شك فيه ان في أوامر الرسول ما هو عظيم الاهمية ومنها ما هو أقل أهمية ، فعلينا أن نقدم الأهم على المهم . ولكن لا يحق لنا أبداً أن نطرح شيئاً منها على زعم انها تبدو لنا غير جوهرية ، فقد جاء عن محمد في القرآن الكريم: « وما يَنطِقُ عن الهوى » (سورة ٥٣ النجم : ٨) ومعنى هذا أنه لا ينطق إلا إذا كان ثمة ضرورة ايجابية، وانه ينطق لأن الله تعالى أمره بذلك. من أجل هذا كله نرانا مضطرين إلى أن نعمل بسنة نبينا قلباً وقالباً إذا أردنا أن نُخلص وجهنا للاسلام .

*

فإذا تحقق المسلم الضرورة الايجابية للعمل بسنة نبيه أصبح من حقه حينئذ ، بل من واجبه ، أن ينظر في الدور الذي تقوم به السنة في بناء الاسلام الاجتماعي. ما المعنى الروحي لذلك النظام المفصل من تلك القوانين وآداب السلوك ، التي يجب ان تتخلل حياة المسلم منذ ولادته إلى يوم وفاته، والتي يجب أن تعين له سلوكه في أهم نواحي وجوده وفي أقلها أهمية على السواء، أو في تلك التي قد لا يكوّن لها معنىً ما على الاطلاق؟ وما الخير في أن يأمر الرسول

أتباعه بأن يفعلوا كل شيء كما كان هو يفعله ؟ ما الفرق في ان آكل باليد اليمنى أو باليد اليسرى ، إذا كانتا كلتاهما نظيفتين على السواء ؟ أليس هذا وأمثاله من الامور الشكلية الخالصة ؟ أوَ لها صلة ما بتقدم البشر أو بخير المجتمع؟ وإذا لم تكن كذلك فلماذا فرضت علينا ؟ هذا هو الوقت المناسب لنا — نحن الذين نعتقد أن رقي الاسلام وانحطاطه متعلق باتبــاع السنة — أن نجيب على هذه الاسئلة .

هنالك على ما أعلم ثلاثة أسباب بينة على الأقل لإقامة السنة :

فالسبب الأول تمرين الانسان بطريقة منظمة على أن يحيا دائماً في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس ، فإن الاعمال والعادات التي تقع عفو الساعة تقوم في طريق التقدم الروحي للانسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة . ان هذه الأعمال والعادات يجب أن تقلّ إلى أقصى حدودها لأنها تتلف التوجيه الروحي للفكر ، فكل شيء تفعله يجب أن يكون مقدوراً بارادتنا وخاضعاً لمراقبتنا الروحية . ولكن قبل ان نتوصل إلى ذلك يجب أن نتعلم مراقبة أنفسنا. ان ضرورة ضبط النفس أبداً قد عبر عنها في الاسلام عمر بنُ الخطاب أحسن تعبير فقال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا » . ولقد قال الرسول ايضاً : « اعبد ربك كأنك تراه [1] » .

لقد اشرنا من قبل الى ان الفكرة الاسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب ولكنها تشمل فعلاً حياتنا كلها ، اما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في « كلٍ » واحد. من اجل

(١) صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن ابي داود وسنن النسائي .

ذلك وجب أن تكون جهودنا موجهة بوضوح نحو إزالة العوامل التي تنشط في حياتنا على غير وعي منا وغير خضوع لسيطرتنا؛ فنزيلها بالقدر الذي تتحمله طاقة البشر. إن محاسبة النفس هي اولى الخطوات في هذا السبيل ، وان اوثق الوسائل للتمرين على محاسبة النفس أن تخضع اعمالنا التي تجري في حياتنا اليومية بحكم العادة وبغير مبالاة ظاهرة، للمراقبة. ان هذه « الصغائر » وتلك الاعمال والعادات «القليلة الاهمية» هي في الحقيقة فيما يتعلق بالمران العقلي الذي نتكلم عليه ، اكثر اهمية من أوجه النشاط « العظمى » في حياتنا ، إذ أن الامور «العظمى» بالاضافة إلى عظمها، تبقى دائماً بادية بوضوح وتظلّ غالباً في نطاق وعينا . ولكن تلك الامور « الصغيرة » تغرب بسهولة عن بالنا وتخدعنا عن مراقبتنا لها . من أجل ذلك كانت تلك الصغائر أشياء أكثر نفعاً لنا في شحذ قوة ضبط النفس فينا .

قد لا يكون من المهم في ذاته ان نأكل بأي اليدين ، ولكن اذا اعتبرنا التنظيم من اشد الامور اهمية ان نأتي اعمالنا مقدّرة بنظام. وليس من السهل على الاطلاق ان يبقى الانسان في تنبه مستمر لمحاسبة النفس وضبطها، حتى ولو كانت فيه هاتان القوتان مثقفتين غاية التثقيف. ان كسل العقل لا يقل في حقيقته عن كسل الجسم، فإنك اذا سألت رجلا تعوّد حياة القعود أن يسير مسافة ما فإنه لا يسير غير قليل حتى يتعب ويصبح غير قادر على أن يتابع مسيره، وليس هذا شأن من تعوّد في حياته كلها ان يمشي ومَرِن على ذلك ، ثم لا يجد في هذا النوع من الجهد العضلي جهداً على

الاطلاق بل يجد فيه عملا جسمانياً مُستطاباً كان قد تعوده من قبل. فهذا تعليل آخر يرينا لماذا تشمل السنة كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية تقريباً. فإذا تحتم علينا ابداً أن نُخضع جميع ما نعمل وجميع ما نترك لتمييز عقلي معلوم، فإن مقدرتنا على ضبط النفس واستعدادنا لذلك ينموان تدريجاً ثم يصبحان فينا طبيعة ثانية. وفي كل يوم — ما دام هذا التمرين مستمراً — يتناقص كسلنا الادبي حسب ذلك.

إن استعمال التعبير «تمرين» يقتضي بطبيعة الحال أن تكون قوته الفعالة معتمدة على الوعي في القيام به. وفي اللحظة التي ينحط فيها العمل بالسُنّة إلى عمل آلي، تفقد السنة قيمتها المثقّفة فقداناً تاماً، وكذلك كان شأن المسلمين في الاعصر الاخيرة. أما الصحابة والتابعون الذين قاموا بكل مسعى لجعل كل دقيقة في حياتهم موافقة لما كان عليه الرسول، فإنهم فعلوا ذلك مع الفَهْمِ التام بأنهم اسلموا أنفسهم إلى إرادة هادية تجعل حياتهم مطابقة لروح القرآن الكريم، وبالإضافة إلى هذا الفهم استطاعوا أن يستفيدوا من التمرين على العمل بالسنة أعظم ما يمكن لهم أن يستفيدوا. وليس الخطأ على النظام، أي نظام السنة، إذا كان المسلمون في الأعصر المتأخرة لم يحسنوا السير على السبل التي شقتها لهم. ولعل هذا الإهمال للعمل بالسنة راجع في الأعم الأغلب إلى نفوذ التصوف الفارسي الذي ازدرى القوى الفاعلة في الانسان وبالغ في تأكيد قيمة القوى المستوحية فيه. وبما ان العمل بالسنّة اصبح جزءاً جوهرياً من الحياة الدينية الإسلامية منذ بدء الدعوة، فإن الصوفية

لم تستطع أن تستأصله مبدئياً ، ولكنها استطاعت ان تبطل قوته الفعالة وأن تبطل من أجل ذلك ، إلى حد ما ، نفعه المرتجى . وهكذا صارت السنّة في نظر المتصوفين رسماً ذا قيمة افلاطونية (رمزية) فقطوذا أساس صوفي، وأما الفقهاء والمتشرعون فكانت في نظرهم نطاقاً من القوانين ، وأما عامة المسلمين فكانت عندهم صدفة فارغة لا معنى لها على الاطلاق . ومع ان المسلمين قد قصروا في الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم ومن تفسير تلك التعاليم بسنة الرسول، فإن الفكرةالتي تقوم عليها تلك التعاليم مع تفسيرها بالسنة لا تزال سليمة، وليس ثمة ما يمنع العودة الى العمل بها ثانية. ثم إن السنة ليست، كما يزعم النقاد من الخصوم، من نتاج المرائين والظاهريين الجفاة، ولكنها نتاج رجال ذوي وعي وعزيمة ولوذعية، وأصحاب رسول الله كانوا من هذا الطراز الأول. إن وعيهم الدائم ويقظتهم الباطنة وشعورهم بالتبعة في كل شيء — كانت هي سرّ الاعجاز في مقدرتهم وفي فوزهم التاريخي المدهش .

هذه هي الناحية الأولى والناحية الفردية كما يقال. أما الناحية الثانية فهي الأهمية الاجتماعية والنفع الاجتماعي . يكاد لا يكون ريب في أن أكثر المنازعات الاجتماعية ترجع إلى سوء فهم بعض الناس لأغراض بعضهم الآخر ولمقاصده . وسبب سوء الفهم هذا اختلاف الأمزجة والميول في أفراد البيئة الاجتماعية اختلافاً كبيراً **فإن الأمزجة المختلفة تحمل الناس على عادات مختلفة ، وهذه العادات المختلفة اذا تبلورت بالمراس سنين طوالاً أصبحت حواجز بين الافراد . ولكن اذا اتفق على عكس ذلك، ان نفراً**

اتخذوا في حياتهم كلها عادات معينة ترجح ان تقوم صلاتهم المتبادلة على التعاطف، وان يكون في عقولهم استعداد للتفاهم . من أجل ذلك جعل الاسلام – وهو الحريص على خير الناس الاجتماعي والفردي – من النقاط الجوهرية ان يحمل بنفسه افراد البيئة الاجتماعية بطريقة منظمة على ان تكون عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت احوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة .

ومع هذا فان السنة مع ما فيها من « التشدد » المزعوم تقوم نحو المجتمع بخدمة أعظم : إنها تجعله متماسكاً مستقراً في شكله، وتحول دون تطور العداء والنزاع ، كما اتفق في المجتمع العربي ، إذ أثار ذلك التطور اضطراباً عظيماً تحت ستار ما يسمونه القضية الاجتماعية. إن مثل هذه القضايا الاجتماعية تنشأ حينما يبدأ الناس في النظر إلى بعض المؤسسات أو العادات على أنها غير كاملة في نفسها ، وأنها من أجل ذلك خاضعة للانتقاد والتبدل المستمر. ولكن فيما يتعلق بالمسلمين – أي أولئك الذين يعدون أنفسهم مقيدين بشريعة القرآن الكريم وبالتالي بأوامر الرسول ، فإن أحوال المجتمع عندهم يجب أن يكون لها مظهر مستقر لأنهم يرجعون بها إلى أساس مطلق . وما دام هـذا الاساس لا يحوم حوله ريب ما فليس ثمـة من حاجة ولا رغبـة في تبديل التنظيم الاجتماعي الذي نتج منه. وهكذا فقط نستطيع ان ندرك الإمكان العملي لما يفترضه القرآن الكريم من أن المسلمين يجب أن يكونوا « كالبنيان المرصوص » . فلو أنا طبقنا هذا المبدأ تماماً لما كان المجتمع مضطراً إلى أن ينفق جهوداً على أمور فرعيـة وإصلاح

اجتماعي ليس لها - حسب طبيعتها نفسها - سوى قيمة زائلة . فإذا تحرر المجتمع الانساني من الاضطراب الكلامي (الجدليّ) ثم بُني على قواعد من الشرع الالهي والاقتداء بالرسول ، فإنه يستطيع حينئذ أن يستغلّ جميع قواه في معالجة مسائل تسبغ على المجتمع رفاهية حقيقية ، مادية وعقلية ، فتمهد الطريق أمام الفرد للسير في جهوده الروحية . هذا ولا شيء سواه ، هو الغرض الديني للتنظيم الاجتماعي في الاسلام .

ثم نأتي إلى الناحية الثالثة من السنّة وإلى التشدد في العمل بها.

في هذا النظام من العمل بالسنة يكون كل شيء في حياتنا اليومية مبنياً على الاقتداء بما فعله الرسول. وهكذا نكون دائماً، إذا فعلنا أو تركنا ذلك ، مجبرين على أن نفكر بأعمال الرسول وأقواله المماثلة لأعمالنا هذه. وعلى هذا تصبح شخصية أعظم رجل متغلغلة إلى حد بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه ، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طول الحياة. ذلك يقودنا عن وعي منا أو عن غير وعي إلى أن ندرس موقف النبي في كل أمر . فحينئذ نتعلم أن ننظر اليه ، لا على أنه صاحب وحي أدبي فقط ، بل على أنه الهادي إلى الحياة الكاملة أيضاً . وقبل أن نتزحزح عن هذه النقطة يجب أن نجزم فيما إذا كنا نعد النبي رجلاً حكيماً كغيره من الحكماء ، أو انه رسول الله الأسمى الذي يعمل دائماً بوحي إلهي . إن نظرة القرآن الكريم إلى هذا الأمر واضحة إلى حد أنها تجعل كل سوء فهم لها غير ممكن. إن الرجل الذي أرسل « رحمة للعالمين » لا يمكن إلا أن يكون

موحى اليه على الدوام، فإذا أبينا عليه هداه أو أبينا بعض عناصر هذا الهدى ، فإن هذا لا يعني شيئاً أقل من أننا نأبى رحمة الله أو نبحسها حقها ، ويعني فوق ذلك – إذا تابعنا هذه الفكرة منطقياً – أن الرسالة التي جاء بها الاسلام لم تكن حق بمجموعها ، الحل النهائي لقضايا البشر ، بل كانت حلا آخر قد يكون مساوياً له في الصحة والفائدة ، وإن المفاضلة بين هذين الحلين قد تُركت لفطنتنا نحن : هذا المبدأ الهيّن – لأنه لا يجبرنا أدبياً ولا عملياً على أن نجزم بشيء مطلقاً – قد يقودنا إلى كل مكان ولكنه بكل تأكيد لا يقودنا إلى روح الاسلام ، وقد جاء في القرآن الكريم: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (المائدة ٣).

نحن نعد الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها: انه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد وبالمجتمع، انه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الانسانية من وجود الامكان الى السمو، بل يهتم ايضاً لما فيها من قيود طبيعية. إنه لا يحملنا على طلب المحال ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد ، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة – حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. **انه ليس سبيلاً بين السبل ، ولكنه السبيل ! وان الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة ، ولكنه الهادي. فاتباعه في كل ما فعل وما امر اتباع للاسلام عينه ، واما اطراح سنته فهو اطراح لحقيقة الاسلام .**

الخاتمــــة

●

حاولت في الفصول السابقة أن أبين أن الاسلام في معناه الصحيح لا يستطيع أن يستفيد من تشرّب المدنية الغربية. ولكن لم يبق للاسلام اليوم، من الناحية الثانية، سوى شيء ضئيل من القوة لا يستطيع بها أن يبدي مقاومة كافية، ثم إن بقايا حياته الثقافية تتقوض في كل مكان بتأثير الآراء والعادات الغربية. وها نحن أولاء نسمع منه أنين الاستسلام، والاستسلام في حيــــاة الشعوب والثقافات معناه الموت.

ما بال الاسلام ؟ أهو حقيقة كما يريد خصومنا والمتخاذلون في صفوفنا أن يجعلونا نعتقد فيه أنه « جهود ذاهبــة سدى » ؟ هل فقد الاسلام كل فائدة مرجوة، وقدم للعـــالم كل ما كان ينتظر منه أن يقدمه ؟

يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الانسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الـكائنات الحية. إنها تمرّ في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها: إنها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى في آخر الامر. فالثقافات، كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً، تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً.

أهذه إذن حال الاسلام ؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية . مما لا شك فيه أن الثقافة الاسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهداً من الازدهار ، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية ، ولقد غيرت معالم الشعوب وخلقت دولا جديدة ، ثم سكنت وركدت وأصبحت كلمة جوفاء ، وها نحن أولاء اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها . . ولكن هل هذا كل ما في الأمر ؟

اذا كنا نعتقد ان الاسلام ليس مدنية ما بين المدنيات الأخر وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم، بل هو شرع سنه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان، فإن الموقف يتبدل تماماً .
ولكن إذا كانت الثقافة الاسلامية في اعتقادنا نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً فاننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول بأنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية . ثم إن ما يظهر انحلالاً في الاسلام ليس في الحقيقة إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلي . ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الانسانية - مع نموها الحاضر - قد استطاعت أن تشب عن الاسلام ، بل انها لم تستطع أن تخلق نظاماً خلقياً أحسن من ذلك الذي جاء به الاسلام . انها لم تستطع أن تبني فكرة الاخاء الانساني على أساس عملي ما كما استطاع الاسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا : «الأمة» . انها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكار بين أهله فعلا على مثال ما تم في النظام الاجتماعي في الاسلام . إنها لم

تستطع ان ترفع قدر الانسان ، ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي ولا سعادته .

ففي جميع هذه الامور نرى الجنس البشري في كل ما وصل اليه مقصوراً كثيراً عما تضمنه المنهاج الاسلامي. فأين ما يبرر القول اذن بأن الاسلام قد ذهبت ايامه ؟ أذلك لأن اسسه دينية خالصة ، والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم؟ ولكن اذا رأينا ان نظاما بني على الدين قد استطاع ان يقدم منهاجا عمليا للحياة أتم وامتن واصلح للمزاج النفساني في الانسان من كل شيء آخر يمكن للعقل البشري ان يأتي به من طريق الاصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميزان الاستشراف الديني ؟

لقد تأيد الاسلام ـ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ـ بما وصل اليه الانسان من أنواع الانتاج الانساني ، لأن الاسلام كشف عنها وأشار اليها على انها مستحبة قبل ان يصل اليها الناس بزمن طويل.

ولقد تأيد ايضاً على السواء بما وقع أثناء التطور الانساني من قصور واخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عالياً واضحاً بالتحذير منها قبل أن تتحقق البشرية ان هـذه أخطاء . وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد ، من وجهة نظر عقلية محض ، كل تشويق إلى ان نتبع الهدي الاسلامي بصورة عملية وبثقة تامة.

فاذا اعتبرنا ثقافتنا ومدنيتنا من هذه الناحية ، وصلنا ضرورةً إلى نتيجة واحدة ، هي إن إحياءهما ممكن . نحن لا نحتاج إلى فرض « إصلاح » على الاسلام ، كما يظن بعض المسلمين ، لأن الاسلام كامل بنفسه من قبل . اما الذي نحتاج اليه فعلاً فإنما هو

إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا وقصر نظرنا ، وبكلمة واحـدة معالجة مساوئنا نحن لا المساوىء المزعومة في الاسلام . ولكي نصل إلى إحياء إسلامي فاننا لا نحتاج إلى أن نبحث عن مبادىء جديدة في السلوك نأتي بها عن الخارج : إننا نحتاج فقط إلى أن نرجع إلى تلك المبادىء القديمة المهجورة فنطبقها من جديد . ثم اننا قد نقبل بلا ريب بواعث جديدة من الثقافات الاجنبية ، ولكننا لا نستطيع ان نتبدل بالبناء الاسلامي الكامل شيئاً ما أجنبياً ، سواء علينا أجاءنا من الغرب أم من الشرق. إن الاسلام كمؤسسة روحية واجتماعية غني عن كل تحسين . وإن كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعي بافتئات من ثقافة أجنبية ما ـ ولو باشراق ضئيل ـ سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد ، وسترجع الخسارة حتماً علينا نحن .

ولكن مع كل هذا يجب علينا ان لا نخدع انفسنا . نحن نعلم ان عالمنا ، العالم الاسلامي ، قد اضاع تقريباً حقيقته كعامل ثقافي مستقل . ولست اتكلم هنا عن الناحية السياسية من الانحلال الاسلامي ، فإن اعظم نواحي حالتنا الحاضرة اهمية هي نطاق الحياة العقلية والحياة الاجتماعية : إنها فقدان الايمان وتفكك التنظيم الاجتماعي عندنا. ولم يبق شيء سوى قليل من التماسك الاصلي الذي كان كما رأينا من قبل ، أخص ميزات المجتمع الاسلامي الاول . وإن ما نحن فيه اليوم من فوضى ثقافية واجتماعية يدل بوضوح على ان قوى التوازن التي كانت سبب العظمة في العالم الاسلامي قـد اوشكت اليوم ان تتلاشى . اننا اليوم مندفعون في التيار على

غير هدى وما من واحد يعلم إلى أي مصير ثقافي نندفع . لم يبق لنا شجاعة ادبية ولا روح يقاوم عنا ذلك السيل الجارف من المؤثرات الاجنبية الهدامة لدينا ولمجتمعنا . لقد اطرحنا احسن التعاليم الادبية التي ُقيض للعالم ان يعرفها . إننا نجحد إيماننا بينما كان ذلك الايمان لأسلافنا دفعاً عظيماً . إننا نخجل بإيماننا بينما كانوا هم فخورين به ، إننا فقراء القلوب انانيون بينما كانوا هم يفتحون صدورهم للعالم كله بكرم وسماح . إن قلوبنا خالية خاوية بينما قلوبهم كانت عامرة بالايمان .

هذه الشكوى مشهورة لدى كل مفكر مسلم . وكل فرد قد سمعها تتردد مرة بعد مرة ، فهل هناك فائدة من ترددادها مرة اخرى؟انا اعتقد ذلك!إذ ليس لنا للخلاص من عارهذا الانحطاط الذي نحن فيه سوى مخرج واحد:علينا ان نشعر أنفسنا بهذا العار بجعله نصب أعينناليل نهار،وأن نطعم مرارته الى أن نعزم عزماً أكيداً على إزالة أسبابه . وليس من فائدة أبداًفي إخفاء الحقيقة عن أنفسنا وفي الدعوى بأن العالم الاسلامي ينمو بفضل النشاط الاسلامي نفسه، وأن الدعاة يعملون فيالقارات الاربع وان اهل الغرب قد أخذوا يرون جمال الاسلام شيئاً فشيئاً . ولا فائدة ايضاً في ان ندعي هذا كله لنقنع انفسنا عن طريق الحجج التي ترمي الى اطمئنان ضمائرنا بأن إذلالنــــا لم يصل بعد إلى الدرك الاسفل . لا ، إنه الآن في الدرك الاسفل .

افيكون هذا نهاية كل شيء ؟

إن توقنا الى التجدد ورغبةالكثيرين منا في أننصبح خيراً مما

نحن الآن يجعلان من حقنا أن نأمل بأن السيف لم يسبق العذل بعد . ان هنالك بلا ريب سبيلا إلى التجدد ، وهذه السبيل بادية بوضوح لكل ذي عينين .

تلك السبيل تتحقق بأن ننفض عن أنفسنا روح الاعتذار ، الذي هو اسم آخر للانهزام العقلي فينا ، او هو اقناع لتشاؤمنا. اما الخطوة الثانية فهي أن نعمل بسنة نبينا على وعي منا وعزيمة. وليست السنة إلا تعاليم الاسلام نفسها قد وُضعت موضع العمل بها فباتخاذنا إياها الكلمة الفصل في الاختيار وبتطبيقها على كل ما تتطلبه حياتنا اليومية نستطيع بسهولة أن نعرف البواعث التي ترد علينا من المدنية الغربية ، وما يجب أن نتقبله منها أو أن نرفضه. وبدلاً من أن نُخضع الاسلام باستخذاء للمقاييس العقلية الأجنبية ، يجب أن ننظر إلى الاسلام على أنه المقياس الذي نحكم به على العالم .

وفي الحق على كل حال أن كثيراً من مقاصد الاسلام الأولى قد ألقي عليها لون زائف ، وذلك بتأويلها تأويلا ناقصاً ولكنه مقبول لدى العامة . وأن أولئك المسلمين الذين لا يستطيعون أن يرجعوا بأنفسهم الى المصدر الأول ويصححوا به مدركاتهم لم يبق أمامهم سوى صورة مشوهة بعض التشويه للاسلام ولكل ماهو إسلامي. ان جميع المقترحات المستحيلة التي يتقدم بها اليوم أناس ينسبون «الرشد» الى أنفسهم على أنها نتائج منطقية لما جاء به الاسلام في أول أمره ليست في أكثر الأحوال إلا أخيلة تواضعوا عليها للنتائج الأصلية ، ولكن على أساس من المنطق القديم في الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ذلك المنطق الذي إن جاز أن يُعدّ «عصرياً»

أو عملياً مقبولا في القرن الثاني أو الثالث للهجرة فإنه الآن قد أخنى عليه الدهر كثيراً . إن المسلم الذي يتربى على أسس غريبة ويكون في أكثر الاحيان غير ملم باللغة العربية ولا متضلع من مشاكل الفقه يميل بطبيعة الحال الى النظر الى التأويلات والمدارك الذاتية البالية على أنها تمثل مقاصد الشارع الصحيحة ، فتراه لخيبته أمام ما يراه من النقص فيها ينفر منها وهو يظن أنها الشريعة الاسلامية الحق . وهكذا إذا أردنا ان تعود تلك المقاصد الاسلامية الأولى قوة مبدعة في حياة المسلمين من جديد ، فإن قيمة المقترحات الاسلامية يجب أن يعاد فيها النظر على ضوء فهمنا نحن للمصادر الاصلية ، ثم علينا أن ننفض عن الشريعة تلك الطبقة الكثيفة من التأويلات العرفية التي تراكمت في خلال العصور حتى وصلت الينا فوجدناها ناقصة . إن نتيجة مثل هذا المسعى يمكن أن تكون بزوغ فقه جديد يتفق تماماً مع مَصْدَري الاسلام : القرآن الكريم وسنة النبي ، وفي الوقت نفسه إجابة لدواعي حياتنا الحاضرة ، بمثل ما أجابت أوضاع الفقه القديم داعي الفلسفة الارسطوطاليسية وداعي الافلاطونية الجديدة ووافقت أحوال الحياة التي سادت قبل عصر الثورة الصناعية .

ولكننا إذا استطعنا أن نستعيد ما فقدناه من الثقة بأنفسنا ، فحينئذ فقط نأمل أن نجعل سبيلنا صعوداً من جديد . ولا يمكن أبداً أن نبلغ هذا الهدف إذا أتلفنا

مؤسساتنا الاجتماعية الخاصة بنا ثم أخذنا في تقليد مدنية أجنبية – أجنبية لا بمعناها التاريخي والجغرافي فحسب ، بل بمعناها الروحي أيضاً .

وإذا اعتبرنا الأمور على ما هي جارية عليه اليوم ، فإن الاسلام يشبه مركباً يغرق ، وكل يد تستطيع أن تكون عوناً فإنما الحاجة اليها على ظهر المركب نفسه . ولكن لايمكن أن ننقذ هذا المركب من الغرق إلا إذا أصغينا الى القرآن الكريم وفهمنا قوله : « لَقدْ كانَ لكم في رسولِ الله أسوة حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر »[1] .

(١) سورة ٣٣ (الاحزاب) : ٢١ .

فهرست

•


مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان